اميلي نصرالله

تِلْكَ الذِّكْرَيَاتُ

نوفل

امِلي نَصرالله

تِلْكَ الذِّكْرَيَاتُ

رواية

نوفل

إنّ الأشخاص الذين يرد ذكرهم في هذه الرواية هم من نسج الخيال، وإذا صدف أن تشابهت شخصيّاتهم، أو وقائع تجاربهم مع تجارب سواهم من الناس، يكون ذلك من قبيل المصادفة لا أكثر.
جميع الحقوق محفوظة.

الطبعة الرابعة
صدرت عام 2018 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2018
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine instagram.com/HachetteAntoine twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **مها نصرالله**
خطّ الغلاف: **سمير الحداد**
طباعة: **مطابع روحانا الشمالي**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-035-2
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-036-9

إلى فيليب...

تمهيد

أودّ، في بدء كلامي، أن أؤكد رفضي المطلق لمنطق الحروب، من أيّ نوع كانت.

ولمّا اشتعلت حرب لبنان، هرعت مع حفنة من المواطنين، بكثير من السذاجة، هرعنا لنعقد لقاءات فكريّة، أو نجتمع بالأقطاب من مختلف الفرقاء، نطلب منهم أن يوقفوا ارتجاج الزلزال.

كان ذلك في المرحلة الأولى من الحرب، ثمّ بدأت الأيّام تمرّ وتنجلي عن أمور لا يصدّقها العقل في وعيه أو اللاوعي.

وبدأت شخصيًّا، أنطوي على ذاتي، لا شغفًا بالانطواء، بل لأنّي اكتشفت سذاجة المسعى وخيبة الأمل.

ثمّ راح الشمل يتفرَّق.

الأصدقاء سافروا، هاجروا...، البيوت بدأت تفرغ، الدنيا تغيّرت، وأنا لست كاتبة وحسب، بل إنّي أُمّ وزوجة ولديّ مسؤوليّات تجاه عائلتي الصغيرة.

تلك الحرب اللعينة، جعلتنا نتقلّص وننزوي كالفئران في أصغر جحر من الوجود، في زاوية لا تطالها الصواريخ المجنونة، والقنابل المزغردة في سماء المدينة.

كان همِّي، في تلك الأيام الرهيبة، أن أحمي رأسي ورؤوس من حولي، من الموت الرخيص، قنبلة تخترق المنزل، رصاصة طائشة، رصاصة قنص، الخ...

في المرحلة الأولى من الحرب حاولت أن أستمرّ في الكتابة، ولكنّي توقفت في صيف 1975 عن كتابة القصّة القصيرة والرواية، وبدأت أكتب للصغار.

صرت أكتب لأَولادي حتى ألهيهم عن كل ما يطرق آذانهم من أحاديث الحرب. كنت أكتب مع أولادي، وفي جوِّهم، وأحاول أن أحميهم لا من الموت وحسب، بل من الحقد الذي راح يغزو نفوس الصغار والكبار.

شخصيًّا، أعتبر حالة الحرب شذوذًا عن القاعدة بالنسبة إلى الوجود الإنسانيّ، بينما القاعدة الطبيعيّة هي السلام. ومن أجل السلام كنت دائمًا أسعى في عملي وحياتي وتوجيه أطفالي.

اجتهدت، مع زوجي، لنمحو كل ما يمكن أن يعلق في نفوس أولادنا من آثار الحرب، فنحن نريدهم أن يعيشوا للسلام، لوطنهم الواحد، من دون أن يفرّقوا، في الوطنية، بين فئة وأخرى.

بقينا في بيروت، وظلّ أولادنا يتابعون دراستهم.

كان إرسال الأولاد، كلّ يوم، إلى المدرسة، ضربًا من البطولة...، أقول هذا بكلّ فخر، عنّي وعن مواطنيّ وجيراني. كنّا في تلك المرحلة الصعبة نعيش من يوم إلى يوم، بل من ساعة إلى ساعة، وقد استمرّ هذا الوضع وصار طبيعة حياتنا.

إنّ ذكر التواريخ هامّ جدًّا بالنسبة إلى سياق الإنتاج والعمل، فبعد الحادي عشر من شهر آذار 1976 حاولت أن أكتب يوميّات، كانت سوداء بلون الحرائق في سماء العاصمة.

كتبت مقطوعات وجدانيّة تسجِّل مزاجي من خلال ما ينهمر علينا من مصائب.

صار صراعي الشخصيّ ينحصر في الاحتفاظ ولو بجزء من صفاء الروح، ونقاء الفكر. ولم أشأ أن يكون كلامي حاملًا ذلك الحزن كلّه. يكفي الناس ما عاشوه من آلام.

بعدها قمت برحلة، لبضعة أيام إلى الخارج، برفقة زوجي وأولادي، اكتشفت خلالها أنّ العائلة ليست الزوج والأولاد وحدهم، فحين يبتعد المرء عن وطنه، تصبح العائلة كلّ ما يضمّه الوطن من جمال أو قبح.

كنت أشعر، في تلك الأيّام، شعورَ أمّ تركت طفلها في أوجِ مرضه، وكان لقائي باللبنانيين الموزَّعين في الخارج يزيد في ألمي ومرارة نفسي، فعدنا تحت وابل القصف، إلى حيث قرّرنا البقاء نهائيًّا.

هل يهمّ أن أذكر أنّنا لم ننجُ من الاعتداء الشخصيّ المؤلم حتى الصميم، من خطف وضرب وإهانة وسرقة وكلّ ما هنالك من قبائح ارتُكبت ضد المواطنين الأبرياء؟...

ومع ذلك، لست حاقدة على أحد. أقول إنّها الحرب بكلّ بشاعتها، يدفع ثمنها المجرم والبريء على السواء.

وإذا كنت أتطلَّع اليوم إلى شيء، فإلى أيّام تكون أفضل بالنسبة إلى أولادنا.

لقد دفعنا نحن ثمنًا غاليًا نرجو أن نوفّره عنهم في المستقبل.

إ.ن.

شهَادة... (أ)

الفصل الأوّل

1

شالها الحريريّ يرتمي فوق الكرسيّ، ورائحة عطرها تعبق في أرجاء داري... عطر غريب عن أجوائنا، حملته معها من مخازن لندن.

ألقت الشال بين يديّ وهي تخطو خارج الباب، حاملة حقيبتها:

– لتذكريني.

ولم أتمالك نفسي، فبكيت بحرارة. صديقتي الحميمة «حنان»، سافرت، عادت إلى لندن، في الاغتراب جعلت سكنها منذ سنتين.

وقبل دقائق كنت أتمشّى معها على شاطئ البحر، حيث يقوم بيتها المهجور.

«لتذكريني!...»

جمعتُ الشال في قبضة يدي وأنا أفكّر: «إنّي بحاجة إلى النسيان لا التذكر...، آه لو تُمحى معالم الذاكرة، وأغرق في تيهِ النسيان! لو أنسى يا... حنان!».

تأمّلتها بهدوء، قبل أن تبتلعها السيارة، وتذوب في زحمة الشارع، ثمّ عدت إلى غرفتي يرافقني وجهها الحزين.

كم تغيَّر وجهها!...

لم أقل لها ذلك، طبعًا.

مثل هذا الكلام لا يُقال لامرأة على عتبة الأربعين.

وحين جلسنا قبل ساعات، على المقعد الحجريّ قبالة البحر، أَخرَجَت من حقيبتها رسمًا ملوّنًا، أُخِذَ لها مع زوجها في أحد مطاعم لندن.

قلت لها إنّه رسم جميل، فتمتمت من دون اكتراث:

– إنه يجسّد لحظة نادرة من لحظات لقائي مع «فريد».

قلت:

– وجهك مشرق مثله أيّام زمان... أيّام الجامعة. وعقد الزهور يليق بك... و...

وأخرستني نظرة اندهاش من عينيها السوداوين... وكأنّما العينان تحاولان الهرب من الصورة... لم أسألها عن مصدر تلك الدهشة... ومن تُراها التقت في ذلك القبو الليليّ الغريب!...

وحين عدت إلى نفسي تذكّرت الصورة بوضوح، وفكّرت في مرور الزمن... في اللحظات التي لن تعود... في الأشياء التي لن تعود... وربّما كانت حنان واحدة من الناس الذين لن يعودوا!

وبقيت أنا، عند هذه الضفَّة المظلمة من الوجود، وقد تفرّق شمل الأصدقاء، وانزلقت وجوههم من بين أناملي مثل حبات الزئبق لتقبع خلف أبواب الاغتراب.

هم يتوزّعون اليوم في شتّى أقطار المعمور. وحين أضع رأسي على الوسادة، أفكّر فيهم... أحيانًا أضيّع عددهم. يهرب مني الرقم المتضخِّم يومًا بعد يوم... أصبحت الذاكرة مثل الغربال، وعلى رغم ذلك، سوف أظلّ أفكّر فيهم، وأحلم بعودتهم، وأتوق إلى الأيّام الماضية.

وصوت حنان لا يزال عالقًا في زوايا الغرفة، وحيرتها تملأ نفسي قلقًا وتساؤلًا.

2

قَضت الليلة البارحة عندي، وقَضتها في القلق والهذيان.

أقلقني صوتها وحرمني النوم. كانت تحدّثني، وتخاطب نفسها في آن معًا: – مش معقول، يا مها، هل تصدّقين؟ إنّهم يفاخرون بالقتل. واحد منهم قال لي إنّه قتل بمفرده مائة وخمسين شخصًا. كان يتوقّف عن الكلام ليبلع الشراب، ثمّ يتابع. زوجته أخبرتني أنّه أصبح مدمنًا... الكأس منقذته وملاذه الوحيد.

اعترضتُ الحديث بسؤالي:

– وهل أخبركِ كيف استطاع أن يفتك بهذا العدد الضخم من الناس؟

– أجل، قال إنّه استخدم عدّة وسائل. وحين شرب الكأس الرابعة راح يصف لي أساليبه الجهنّميّة: التعذيب، التشويه، الحرق بواسطة الكهرباء، بأعقاب السجائر، بَتر الأعضاء...، الأعضاء التناسليّة خصوصًا. قال: «إنّ هذه أهمّ ما في الجسد، بَترها يعني اجتزاز الأصول». إنّه يخشى أن تفرّخ الضحيّة، وتعود إليه لتحاسبه...، أخبرني أنّهم كانوا يطمرون الجثث في بساتين البرتقال، أو يطرحونها تحت الجسور، وكان هناك عدد قليل من المحظوظين، لفظوا أنفاسهم في لحظات، في انفجار قنبلة أو برصاصة قنّاص. فكّري، يا مها! رجل واحد له تلك الطاقة الهائلة على الفتك! كم في وسع الإنسان أن يؤذي!

هذا الرجل اعترف بجرائمه في لحظة انفعال، وكان في القاعة غيره من الأشخاص، لم أستطع الوصول إليهم، أو الإصغاء إلى حكاياتهم...

تمنّيت لو يصمت الرجل الغريب، أو أهرب منه. لكنّه ظَلَّ متشبّثًا بي وتابع اعترافاته. وخُيّل إليّ أنّي لمحت دمعة تكرج من إحدى عينيه!... أمعنت النظر، وتأكّدت أنّها دمعة صحيحة، دمعة حقيقيّة، كان قد وصل بالسرد إلى الضحيّة العاشرة، اقترب منّي أكثر، وعبقت أنفاسه الملوَّثة بالدخان في أنفي وتابع الكلام: – مسكين ذلك الشاب. كان لا يجاوز الخامسة عشرة من عمره. لونه أسمر، خدّاه أحمران، عضلاته متينة... لو كان عندي ولد لكان في مثل عمره. مروان، هذا اسمه، راح يرجوني لأوفّره. قال لي إنّه لم يقاتل، كان مارًّا مصادفة... ونظرت إلى كنزته الكاكية اللون، وقفز الشكّ إلى ذهني: إنه يكذب. هذا اللون لا يخطئ... هو واحد منهم. مروان، هذا اسمه. وكان يَعِدُ بشباب وسيم، وذكاء. نعم، عيناه ذكيّتان، ومملوءتان حنانًا، ولكن حين وقع بين يديّ تحوَّل إلى جرذ جبان.

أمسكته من عنقه ورحت أشدّ وأضغط على عروقه، فاحتقن وجهه، وصعد الدم إلى رأسه. إزرقّ وجهه، وجحظت عيناه. وكانت تحوّلات وجهه تزيدني إمعانًا في تعذيبه والفتك به... وراحت أصواتهم تطنُّ في أذني... أصوات قادتي: «اقتلهم قبل أن يقتلوك. لا توفّر الأطفال والنساء. لا توفّر الشيوخ والشباب، خصوصًا الشباب، إنّهم يَبيضون ويفرّخون في كل مكان، أولئك الشباب... امسحهم!...»

ومروان كان شابًّا، وسوف يفرّخ عشرات المرّات...

قلت ذلك في نفسي وشددت على العنق... وعادت أصوات القادة تباركني: «افتك بهم قبل أن يفتكوا بعائلتك...»

وعائلتي هذه الزوجة الموتورة وأمّ وأب عاجزان...

ولوى مروان عنقه، وقبل أن يلفظ نفسه الأخير ألقى إليّ بنظرة استرحام... من يظنّني أكون؟... هل أنا اللّه لأرحم!... لا رحمة للعدوّ... هل تسمع يا مروان؟ هل تفهم؟

لماذا نظرتَ إليّ تلك النظرة المسترحمة؟ لولاها، ربّما بقيتَ حيًّا. كنتَ كلّما لجأتَ أنت إلى الضعف والخوف، أيقظتَ فيَّ غريزة الوحش، أَثرتَني، وسرَتِ الإثارة إلى ساعديّ، فحَبِلا بالقوّة والمقدرة على الفتك.

عند هذا الحد توقّف محدّثي، وراح يمسح العرق المنهمر على عنقه وجبينه، ثمّ مدّ يده إلى زجاجة الشراب وصبّ كأسًا جديدة، وعاد يتكمّش بي قبل أن أهرب: – أرأيتِ لماذا قتلته؟ مسكين مروان. حتى الآن لا أعرف اسمه الكامل، ولا من أيّة قرية جاء، ومن هُمَا والداه... وهل وجدوا جثته أم تهرّأت في الغاب؟

كان في جوارنا غاب كثيف، يبتلع الجثث ولا يشبع... على كلّ، لماذا أروي لك هذه الأخبار كلّها؟... ربما اطَّلعتِ عليها من الصحف. كانت الصحف تصف المواجهة وصفًا دقيقًا، وتجود حين تصل إلى وصف الجثث. والآن جاء دورِكِ لتخبريني ماذا فعلتِ في الحرب؟...

صبَّ سؤاله مثل لسان اللهب، شعرت بالحرج، وازداد خفقان قلبي. ماذا أقول له؟ قرّرت أن ألزم الصمت... وحين ألحّ، قلت له إنّي لم أفعل شيئًا، ولم أجرؤ على أن أصدقه القول، فأخبره بأنّي سافرت إلى الخارج... وأنّي الآن خائفة، وأتمنّى لو يأتي من ينقذني منه، فأغادر السهرة، قبل أن يرتكب الرجل جريمة جديدة.

تطلّعت أبحث عن زوجته، علّها تأتي وتقتلعه من مكانه، لكنّها كانت غارقة في الحديث مع أحد الساهرين.

وصديقي، الذي دعاني إلى السهرة، تخلّى عني وغرق في الحديث عن السياسة...

قاطعتُ حنان بقولي:

– والسهرة أفادتك؟...

فانتفضت مغتاظة:

– لم أكن أتصوّر أنَّ الناس تغيّروا إلى هذا الحد. قبلتُ الدعوة وكلّي شوق إلى أصدقاء الماضي، ورفاق الجامعة. كانت هذه فرصتي لألتقيهم بعد غياب سنتين... أمّا الآن، فقد مات في نفسي كلّ شوق.

– ولم يبق لكِ سوى النعاس والألم... هل تدركين يا حنان أنّها الرابعة صباحًا؟ حاولي أن تنامي.

أطفأتُ المصباح، وتمنَّيتُ لو تغفو صديقتي ولو ساعتين، فإنَّ أمامنا نهارًا طويلًا من المسؤوليّات والواجبات.

ما كدت أُطفئ النور، حتى عادت حنان تطرق باب غرفتي:

– أرجوك، يا مها، أشعلي المصباح.

3

كانت حنان قد اتّصلت بي تلك العشيّة وطلبت أن تبيت عندي، إذ تخشى البقاء ليلًا في بيتها المهجور.

رحّبتُ بها وجلستُ أنتظر وطال انتظاري. وفي الثامنة جاءني صوتها على التلفون: – يا عيوني يا مها، إنّي قادمة.

انتظرتُ ساعة ولم تأتِ، والمسافة بيننا قصيرة.

تلفنت لها، فأجابني الصمت والفراغ...

لم ينشغل بالي، ولم أندهش. حنان لم تبدّل عاداتها. ليس للوقت عندها أيّ حساب. يمكن أن يلهيها عن وعدها أي شيء.

ولكنّنا نعيش في غير زمان. وحين أويت إلى فراشي، راحت الشكوك تهاجمني: ماذا جرى لها؟ امرأة وحدها في الليل! تُراها غيّرت رأيها ونامت في منزل أحد الجيران؟

على هذه التساؤلات غفوت إغفاءة سطحية، ثمّ أيقظني رنين الهاتف:

– يا عيوني، أنا قادمة إليك، انتظريني.

لم أسألها من أين؟.. وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل، والرياح البحريّة تعارك شجرة الكينا أمام غرفتي، وحارس السفارة المجاورة يتمشّى

في الشارع وقد تدثَّر بمعطف كثيف، ورفع ياقته ليحمي أذنيه من صقيع الليل. بدا كلّ ما حوله صامتًا، والشوارع مقفرة، والمصابيح الكهربائية تتثاءب ضجرًا.

كان عليّ أن أهبط السّلّم، لأفتح الباب الحديديّ الثقيل، أحد مخلّفات الحرب البشعة.

وأخيرًا وَصَلَت، استقبلتُها بصمت وراحت تصبّ اعتذارها في سمعي: بعدما كَلَّمَتني، اتّصل بها أحد الأصدقاء، ودعاها إلى العشاء والسهرة، وقَبلَت الدعوة بحبور. إنّها مشتاقة لترى الأصدقاء القدامى، وتسمع أخبارهم. وتريد أن تكتشف بنفسها كيف صار الناس في أثناء غيابها...

وكانت تلك المواجهة الأولى لحنان، الهاربة من الحرب، مع جماعات عاشوا الحرب وأنعشوها...

الفصل الثاني

1

قبل سنتين، غادرت حنان منزلها الأنيق في منطقة «الرملة البيضاء» في بيروت.

أذكر كيف جاءتني، في تلك الصبيحة الباردة، وقد أخذتها اللهفة، وأغرقتها الحيرة في بحرها الغامض:

– فريد قرّر السفر إلى لندن. يعتقد أنّ المستقبل بائس بالنسبة إلى عمله في لبنان، لذا تعاقد للعمل مع شركة بريطانيّة.

– والأولاد؟...

انطلق السؤال عفويًّا. لم أقصد أن أستوضح حتّى لا أزيد في حيرتها. إذا كان فريد قرّر العمل في لندن، فالأولاد يرافقونه، ويرسلهم إلى مدرسة تلائم ذوقه الأرستقراطي، ويشبع توقه الدائم إلى الاغتراب.

لم يكن فريد يوفّر مناسبة من دون أن ينتقد المجتمع اللبنانيّ، وأسلوب العيش فيه، والتربية، وانهيار الأخلاق و...، وكان يتوق إلى يوم يهرب فيه من «الجحيم البشريّ» كما يسمّيه، وينقل أولاده إلى «عالم متحضّر». وكنت أتصدّى له، وأحاول أن أثنيه عن آرائه، من أجل حنان، حنان المجذّرة في تربة بيروت، المُحبّة لكل ما في بلادها من قبح أو جمال...

حنان المتسامحة، المتواضعة، التي تعرف كيف تغفر، وتفهم أخطاء الآخرين، ولا تجعل نفسها حكَمًا، ولا تسلّط سيفها على رؤوس العزّل والضعفاء.

كنت أقول لفريد إنّ الهرب لا يحلّ المشكلة، ومسؤوليّة الإنقاذ تقع عليه وعلى أمثاله من الشباب المثقّف.

وظلّ يدير أذنه الصمّاء، ويختصر الموضوع بقوله:

– لست مُصلحًا اجتماعيًّا... لا أنا سياسيّ ولا فنّان. إنّي إنسان يحبّ العيش بسلام. لذا لن أسمح للحيتان أن تبتلعني وتبتلع أولادي. سوف أهرب بهم، إلى أقاصي المعمور، من أجل مستقبلهم.

وأعود أناقشه:

– لكنّ حنان ليست من رأيك. إنّك تجبرها على السفر.

فيردّ بحسم:

– هي حُرَّة. لِتَبقَ هنا، في جوار أمّها، أمّا أنا فلن يردّني عن قراري أيُّ رادع.

وكانت حنان تخفض رأسها بصمت. فريد عنيد، لا يُناقَش... وربّما جرّبت كثيرًا وملّت اللعبة. وها هي الآن خاضعة الخضوع كلّه، تشدّ جناحيها حول صدرها، وتخفي حقيقة مشاعرها، وتعرّي أفكارها، حين نكون معًا... فقط، حين نكون معًا:

– أمامك أنفتح مثل كتاب، وتصبح قراءتي سهلة. معك أرتاح، وأتخلّص من همومي. حديثنا هو الصابون، ورغوته تغسل آلامي... هل تدركين ذلك يا مها؟

أجل، كنت أدرك ذلك تمامًا، ويحزن قلبي لآلام صديقتي، وأحسّ بعجزي عن تبديل الواقع. هناك حدود لتدخّل الأصدقاء، وفريد يرى أنّ الحقّ معه. إنّه يَنشُد السعادة والاستقرار، وإن كان عن طريق الهرب.

2

وحنان راضية بعيشها. المرأة تخضع لرجلها، هو سيّدها... هكذا علّموها في كتب المدرسة الابتدائيّة.

انقضت سنتان، كانت أخبار حنان تصلني خلالهما عن طريق المسافرين. علمتُ أنّ فريد اشترى منزلا أنيقًا في ضواحي لندن، وأعماله في تقدّم مستمر، وقد جمع ثروة لا بأس بها.

المرأة تتبع رجلها، وهو يبحث عن العمل، سُلّم طموحه ومجده. وعمل فريد أوصلَه إلى قمّة من قمم الثراء، بينما كان الوطن غارقًا في جحيم البؤس.

وكان يفاخر أصدقاءه بأنّه تنبّأ بوقوع الزلزال، ونبوءَته صدقت، واستطاع أن ينقذ نفسه وعائلته في الوقت المناسب.

هذه الأقوال كانت تصلني، وتزيدني قلقًا على حنان. أنا أعرفها جيّدًا وأعلم أنّ صمتها لا يعني الرضى.

وكنت أتساءل كيف تستطيع العيش في بلاد الصقيع والضباب، هي التي اعتادت البحث عن الزوايا الحميمة الدافئة؟ هي عاشقة بحر بيروت وشطآنه الذهبيّة!...

كنت أفكّر، وأتساءل عن مصيرها، ومصير الكثيرين من الأصدقاء والصديقات الذين هاجروا، بينما سماء بيروت تمطرنا قنابل وصواريخ... ويعزلنا الرعب في الملاجئ والأقبية الجوفيّة، ونسهر لياليا، بانتظار الموت، حتّى إذا طلع الصباح، قمنا نفتقد بعضنا بعضًا ونتحسّس أعضاء أجسادنا.

وفي تلك اللحظات الصعبة كنت أسائل نفسي:

هل أتوق إلى أن اكون بعيدة عن الوطن في موته الحاليّ؟ وهل أغبط حنان وسواها من الهاربين؟

وينتصب في ضميري طيفها مؤنِّبًا، فأندم على شكوكي.

حنان لم تختبِرِ السفر، تمامًا كما لم تختبِرِ الخطَّ الذي سارت عليه في حياتها.

كانت أُمّها تدبّر لها أمورها. وأمّها وافقت فريد على رأيه، وحاوَلَت أن تقنع وحيدتها:

– اذهبوا يا ابنتي. مستقبل أولادك أَهَمّ ما في حياتك.

وتردُّ حنان:

– لكنّ السفر يبعدني عنك.

فتجيب الأم بابتسامة الثقة:

– أزورك من حين إلى آخر. اذهبي واتّكلي على اللّه.

وزيارات أمّها، وإن طالت، لم تُوَفِّر لحنان السند الكلّيّ الذي تعوّدته مذ فتحَت عينيها على نور الحياة.

بقيت الشكوك تداعبني إلى أن جاءتني رسالتها ذات يوم، مكتوبة باللغة الإنكليزيّة.

يا أعزَّ صديقة،

كم أنا مشتاقة إليك! كم أُفكّر فيك وأفتقِدكِ! أفتقدكِ كثيرًا. كيف أنت؟ ما هي الأفكار التي تعبر في بالك؟ مَن يشاطرك الأفكار في هذه الأوقات الصعبة؟

لا أحتاج إلى القول إنّي أحترمك وأقدِّرك، وأقدّر روحك الطيّبة، وأحيانًا أتمنّى لو أنّك تعيشين قربنا، في هذه البلدة الصغيرة من ضواحي لندن.

هناك كنوز من المعرفة، ولندن مركز حضاريّ هامّ، وفيها الكثير مما يغذّي الروح والفكر.

لقد فرغت من قراءة كتاب «مرداد» باللغة الانكليزيّة. أعتقد أنّ «ميخائيل نعيمه» كاتب عظيم، وكتابه هذا من أعظم الكتب التي وُضعت في عصرنا. أدب نعيمه يحمل الكثير من الغذاء العقليّ، أمّا في «مرداد»، فيجد المرء غذاءً لروحه. هنا، وصل أديبنا إلى مرتبة الأنبياء.

كم أشعر بالندم لأنّي لم أتمتّع بالحديث إلى هذا الإنسان الكبير، وقد عشت معه في مدينة واحدة، طوال سنين! هل تعتقدين أن الفرصة تُتاح لي من جديد؟

تعلمين كم أنا تائقة إلى النموّ من الداخل. وفي كلّ لحظة أبحث عن وسيلة تساعدني لتحقيق ذلك، لأزداد حكمة وصبرًا، لأقوى على العيش في هذا المحيط الإنسانيّ المثلج.

أَفتقد جلساتنا الهادئة، وأتوق إلى أحاديث عن الأمور الهامّة في هذا الوجود.

أقول لك إنّنا كلّما تعلّمنا، وقلّ تمسّكنا بالأشياء الماديّة، أمكننا فهم الحياة بعمق، فنقف باغتباط، فوق شرفة حرّة، نراقبها وهي تمرّ بنا، من دون أن نسمح لها بسحقنا.

يؤسفني جدًّا أن تكون «العاصفة» التي مرت على لبنان، قد علّمت الناس قليلًا ممّا يجب أن يعرفوه. بعضهم تركوا العاطفة تجرفهم وتحطّمهم. والآن، وقد هدأت الحرب، يجدون أنفسهم منسحقين، سوداويين، فارغين، ومنكسري القلوب.

يا عزيزتي مها،

إقرئي الكتب الروحيّة، فيها ينبوع للطمأنينة النفسيّة، وفيها عزاء وسلام.

أريدك أن تظلّي كما أعهدك، صامدة في وجه العواصف، محتفظة بذلك الهدوء الداخليّ. أريدك أن تبقي دعامة في محيطك، مثلما كنتِ دائمًا وأتمنّى لك كلّ السلام في هذا العام الجديد.

صديقتك حنان

4

طويت الرسالة وخبّأتها.

وفكّرت أنّها تزرع كلامًا جديدًا في خطّ حوارنا.

إذن، هكذا تقضي حنان وقتها! تحاول أن تستفيد من معطيات الحضارة العصريّة. تقرأ «نعيمه» بالإنكليزية لتفهمه أكثر. أوَيَكون ذلك إشارة إلى سيطرة فريد النهائيّة؟...

5

كانت لديّ مشاغل كثيرة قمت أُواجهها. وظلّ كلام حنان يتردّد في ذهني، لم تعد صديقتي إنسانًا فردًا، رفيقة أيّام الجامعة تحوَّلَت إلى رمز، فهي تمثل آلاف المواطنين الذين قادتهم الحرب في دروب الشتات.

وكانت حنان، في رسالتها، تحاول الدفاع عن وضع لم تختره، ولم تكن سيّدته، بل ذهبت إليه منقادة، مسيّرة، خاضعة الخضوع كلّه، لإرادة الزوج من جهة، وأوامر الوالدة من جهة أخرى.

وحين اختارتني لتكتب هذه الرسالة، كانت تؤكّد أَنّ الاغتراب لم يقطع الصلة القائمة بيننا، ولم يمحُ الأيّام الماضية وذكرياتها...

جاءت إليّ مثلما يذهب المؤمن إلى كرسيّ الاعتراف.

قالت لي كلّ ما يخالج نفسها، من ارتباك ووحشة وضياع، ولم تحدّد ذلك في كلماتها القليلة.

وفكّرت: كم مرّةً، من قبل، ضاعت حنان في دروب الحياة؟... وجاءت غربتها الجديدة لتزيدها ضياعًا، وتزيد علاقتنا متانة وإخلاصًا.

الفصل الثالث

1

– لماذا فعلوا ذلك؟ من هو المستفيد؟

عادت حنان تحرّك البركة الموحلة بدفق أسئلتها، ولم يعد يفيد الصمت.

جلستُ في سريري لأواجهها:

– تريدين أن أشرح لك في هذه الساعات المتبقّية من الليل، أسباب أفظع حرب عرفها شعبنا؟ لماذا تُكثرين الأسئلة يا حنان؟ وماذا يفيدك أن تعرفي؟

أجابت باستسلام:

– أريد فقط، أن أعرف لماذا؟

– وهذا هو الجواب الذي يبحث عنه الجميع. هذا أخطر سؤال تطرحينه يا عزيزتي، خصوصًا في هذه المرحلة.

وكنت أودّ أن أقول لها: «لو كان يهمّكِ أن تعرفي لما سافرت إلى لندن».

لكنّني بذلك أقسو على حنان. يكفيها ما تحملُ من ضغوط.

وقبل أن أستعيد هدوئي قذفتني بسؤال آخر: – أوَلم يكن هناك من يستطيع أن يوقف القطار قبل أن يصل إلى قاع الهاوية؟ ألم يوجد مطلق إنسان يهمّه الإنقاذ؟

قلت وأنا ابتلعُ تثاؤبي:

– وهل تعتقدين أن انسانًا واحدًا يستطيع أن يقوم بهذه المهمّة المستحيلة؟

أجابت صديقتي بحماسة:

– أجل، يحبل التاريخ أحيانًا بمثل هذا الإنسان.

قلت:

– وكان تاريخنا عقيمًا. هل يرضيك هذا الجواب؟ نامي الآن واستريحي.

هزّت حنان رأسها رافضة:

– تعتقدين أن عينيّ تذوقان النوم الهادئ بعد الذي شاهدته في أسواق بيروت؟ يا مها، ليتني كنت معكم!

أجبتها معاتبة:

– يا ليت... كنتِ وفّرت عليّ الإجابة عن أسئلتك الصعبة، وتركتِني أنام الليل بهدوء.

ارتفع صوتُها فجأة:

– ولكنّ النوم غباء، يا مها. ذلك الإنسان، في حفلة العشاء، بدأ يشخر لحظة اتّكأ على الطاولة. وفكّرت أنّه نام، وأراحني. ولمّا حاولت أن أنسحب شعر بي فأمسكني من ساعدي وثبّتَني فوق الكرسيّ وهو يتمتم: «لن تتحرّكي من هنا قبل نهاية السهرة... قبل أن أروي لك هذه الحادثة الطريفة»...

– وأطعتِه؟..

أَشارَت برأسها أن نعم، وتابعَت بهدوء: – تعلمين ما هي تلك الحادثة «الطريفة»؟

– كلّا، ولا أريد أن أعرف. حنان، أرجوك، شبعنا حربًا، خزائننا تمتلئ بأخبار الحرب وفظائع الحرب، أهراءاتنا طافحة بهذا المخزون، وحتى آلاف السنين المقبلة... ارحميني، أجِّلي الحكاية حتى الغد واذهبي إلى النوم.

– ولكنّي لا أقوى على النوم. اسمعي فقط هذه: قال لي إنّه كان جالسًا خلف المتراس، في منطقة «البرج» في بيروت، يقنص المارّة، هكذا قال، ببساطة. قال إنّه قنّاص ماهر، وكان مَعَه رفيق له، وتراهن الرفيقان على إصابة هدف صعب، وفي تلك اللحظة صادف مرور سيدة، عند ملتقى شارع «بشارة الخوري» بساحة الشهداء، امرأة فقيرة، كانت تردّ رضيعها فوق صدرها وتجتاز الشارع. راهن المتباريان على رأس الطفل. وكسب محدّثي الرهان. أصاب الرأس من دون أن يصيب الأمّ. لكنّها وقعت من هول الصدمة، فأطلق عليها رفيقه رصاصة الرحمة. قصّة طريفة!!... هل تسمعين؟...

نهضت حنان، عن كرسيّها وراحت تتمشَّى في الغرفة وهي تفرك يديها، وكأنّ الفاجعة وقعت في تلك اللحظة. وكأنّها هي تلك الأمّ التاعسة.

لم أَعد أُطيق صبرًا، ولم أَدرِ كيف أُعيد حنان إلى الواقع... كيف أُذكِّرها بأنّ النوم يريح الأعصاب، وهي بحاجة إليه أكثر من حاجتها إلى تذكُّر هذيان الرجل الغريب.

لكنّ نظرة واحدة إلى عينيها أَكَّدت لي أنّها كانت تعيش الحرب وفعل الندامة في آن معًا. وكأنَّما الأرض تحت قدميها ترسل أسلاكًا مُكهربة تهزّ جذورها، وتذكّرها بالاقتلاع.

وعادت إليّ، بعد لحظات لتقول باستسلام: – يمكن الحقّ معك، ماذا يفيد هذا الكلام؟ فلنستسلم للنوم. الطائرة تغادر الساعة الحادية عشرة صباحًا، وأولادي ينتظرونني وفريد يزمجر كالعاصفة... خصوصًا أنّ أمّي أصبحت عالة عليه بعد مرضها الأخير. صارت بحاجة إلى من يسندها، هي التي سندتنا جميعًا.

قلت وأنا أشعر بارتياح لتبديل موضوع الحديث: – إذن لم يفدها علاج لندن.

– لا، إنّها تسير إلى الأسوأ. أثّر فيها الاغتراب كثيرًا. كان يجب أن تبقى في بيتها، ولكنّها لا تقوى على فراق الأولاد... ثمّ إنّ موقع بيتها على خطّ النار. وهكذا حملناها غصبًا عنها إلى لندن، وراحت توزّع وقتها بين مساعدتي في المنزل وتربية الأولاد، والتجوال في حديقة عامّة مجاورة لمنزلنا... إلّا أنّها لم تستطع أن تخلع ثوب اغترابها مرّة واحدة... كانت تعود من النزهة فتجلس مُطرقة كئيبة، وإذا تَكَلَّمت، فعن الوطن والمنزل المهجور. والمنزل أصبح جدرانًا عارية... أخفينا عنها الحقيقة في بادئ الأمر، ولكن، أمام إصرارها على العودة لإنقاذ البيت، لم نستطع إلّا أن نطلعها على ما جرى... أخبرها فريد ببساطة، ووعدها بترميم البيت حالما تهدأ الأحوال... لم تفتح فمها، ولم تقل كلمة، لكنّها بكت كثيرًا، وكما لم أُبصرها تبكي من قبل. ارتمت بين أحضان العاطفة وراحت تشهق كالأطفال.

وبعد ذلك لم تجفَّ الدموع في عينيها.

لم يكن البيت بالنسبة إليها مجموعة جدران، تحوي الأثاث الفاخر، بل هو الزوايا الحميمة، التي تضمّ أسرار خمسين سنة من حياتها: لحظات الفرح

والحزن، والألم، والشكوى، واللوعة، والحلم والأمل، تضمّ الماضي والحاضر والمستقبل.

والصناديق الموزَّعة في الزوايا مملوءة بالحليّ، بأشغال أناملها، بالآثار التاريخيّة... ومن خزائنها تتضوّع رائحة العطر والبخور وعود الندّ، والذكريات...

كيف يستطيع فريد أن يعيد بناء هذا كلّه؟...

كيف يستطيع أن يعيد إليها صُوَرَ الاحباب المأخوذة في لحظات السعادة والفرح، اللحظات الهاربة من دفتر العمر؟ عمر حافل، لعقته ألسنة النار، أو حملته الأيدي الغريبة وراحت تعبث به... ومكتبتها بكل ما تحويه من كنوز ومخطوطات، ولوحات فنية، يا ليتني أعرف من سطا عليها، لأدفع له ثمن كل قطعة وأستعيدها... يا ليت!

صمتت حنان، وفكّرتُ في أن أحشر نصيحة بين تراكم أفكارها، فأرشدها إلى التجوُّل فوق أرصفة العاصمة، علّها تجد هناك شيئًا من بقايا منزل الوالدة... ثمّ تذكّرتُ أنّ حنان تأخَّرَت في الوصول. «اللقطات» الثمينة نفدت، اشتراها هُواة التحف والآثار.

واستأنفت حنان كلامها:

– أوصتني أمّي بأن أزور البيت عنها.

– وذهبتِ؟

سألتها وأنا لا أتوقَّع الجواب، فقالت: – في البدء كان الأمر صعبًا. منذ وصولي وأنا أتردّد، وأُرجئ موعد الزيارة. ولكن بعدما تجوّلتُ في المنطقة التجارية صار بإمكاني أن أتحمّل أيّ مشهد. نعم، زرت دارنا القديمة، ورأيتها في انسحاقها وتهدّلها، وتذكّرت العزّ الذي كان... ورأيت بأُمّ العين كيف يمكن أن تتحول المنازل إلى مقابر... ونحن لسنا وحدنا.

(حنان تُعزّي نفسها. تردّد كلامًا ضجرنا منه... وحنان الليلة بركان هائج، ولن تدعني أذوق النوم.) فكّرت في ذلك وأنا أسند رأسي إلى الوسادة، وأستسلم لإرادتها. إذا لم تتحدث في اليقظة، فسوف تحكي في المنام.

كانت صديقتي تفجّر ما تجمَّع في ذاتها من ألم وحسرة، وندم ولوعة، إثر زيارتها الأولى لمدينتها الحبيبة... بيروت.

الفصل الرابع

1

كنت أعتقد أنّ الجراح اندملت، وتلاشى الحلم المزعج الذي عشناه عشرين شهرًا.

في مطلع السنة الجديدة هدأتِ الحرب في بيروت، وقررتُ أن أقف على رجليّ من جديد، لأعيد بناء ما تهدّم حولي: «لن أسمح لأيّة قوّة بأن تحطّمني.»

قلت ذلك وأنا أُقَبِّل أطفالي، قبل أن أندسَّ في فراشي البارد... كانت الساعة التاسعة مساءً... وأنا وحدي ورفيق دربي بعيد. هجَّرَته الحرب وراء لقمة العيش. كان عليه أن يجد عملًا، يُلهيه عن التفكير في المزارع المحروقة، بانهيار مداميك البناء الجميل.

وهكذا لبّى الطلب حين استدعته إحدى الدول العربية كخبير زراعي لمدة سنة.

الساعة التاسعة تمدّدتُ في الفراش وقد مات الكتاب فوق صدري واستسلمتُ للتأمّل. غصبًا عنّي راح شريط الأحداث يكرّ أمام عينيّ المغمضتين.

الليل هادئ، الحركة بطيئة و«كورنيش الروشة» يكاد يكون مظلمًا، وفي مثل هذه الليلة من السنوات الماضية، كان يعجّ بالمحتفلين.

ما زال الرعب مفروشًا فوق سطح المدينة، والأسلحة الثقيلة والخفيفة باتت منظّمة، وموزّعة بين المساكن.

ليس هناك ما يدعو إلى الابتهاج بالعام الجديد، وإن كان يحمل الرقم 77...

تُرى، ماذا تحمل هذه السنة؟ قد تكون أفضل من العامين السابقين، لأنّي لا أتصوّر أنّ في العالم بؤسًا يعادل ما عرفناه طوال سنتين.

ولكنّ الفرح ما زال بعيدًا، وإشاراته ملامح باهتة عند الأفق.

تساءلت: ماذا يمكن أن تجلب لي هذه الليلة؟ بل هذه السنة؟ وإلى ماذا أتوق؟

وأجبت تساؤلي: إنّ أقصى ما أطمح إليه الآن هو النوم براحة. النوم الذي لا تقطعه أصوات الانفجارات، وطلقات المدافع.

صرت أحبّ النوم وأهرب إليه من كلّ ما حولي، وأتمنّى لو يكون اليوم كلّه ليلًا لنظلّ نائمين.

لكنّها ليلة رأس السنة، وعلينا أن ننسى ما مضى.

– ننسى؟؟

– نعم، ننسى.

أحاول أن أقنع ذاتي. ويظلّ الألم متنقّلًا بين مفاصلي.

ألم الماضي، يتفجّر في داخلي. ألم الخيبة، والسنوات الضائعة. نعم صارت ضائعة، تلك السنوات التي شقعنا أيّامها، لنبني منها المستقبل لنا، لأولادنا ولوطننا.

ضاعت كلّها.

تَسرَّبت من ثقب غير مرئيّ في زاوية البناء.

ويعود الليل يُلوِّح من الخارج:

– بل عليكِ أن تنسي.

لكنّ شريط الذاكرة لا يتوقّف.

عند بعض المنعطفات يتمهّل المسافر، ليُعيد مراجعة الحساب.

– ونحن، إلى أين وصلنا؟

– إلى هذا الانهيار الصاعق.

– ومتى الخلاص؟

– اللّه، وحده، يعلم ذلك.

ونحن نريد أن نعلم، (أقول للصوت الثنائي في ذاتي)، أنا أريد أن أعلم متى سنخلص ونخرج من هذا الكابوس ونعود إلى حياة بسيطة، هادئة، بعيدة عن

تفجّر العنف والحقد والغضب؟...
يا إلهي!...
وأغمضت عينيّ.

3

كان أوّل لقاء لنا، قبل عشرين عامًا. آنذاك، كنت في الجامعة، أتابع دراستي والعمل في عدّة وظائف صغيرة لأتمكّن من دفع نفقات الدراسة والعيش في بيروت.

وفي يوم التقينا، بلا موعد ولا سابق معرفة، بدأ محاولاته ليخرجني من شرنقة عزلتي ويعيدني إلى دنيا الناس.

كنت مغلقة داخل صدَفة خوفي وشكوكي، ومن داخل تلك الصدفة انتزعني بقوّة محبّته وجاذبيّة إخلاصه.

قلت له في أول لقاء:

– اهرب يا نادر ولا تحاول. ابحث لك عن فتاة أخرى تملأ عينيك بهجة وفرحًا.

كان يستمع إلى هذياني بصمت ولا يعلّق، ثمّ يجيبني بتوجيه دعوة لنخرج معًا.

وأقول له: «يا نادر، أنا محرّمة عليّ صداقة الجنس الآخر. حاول أن تفهم وضعي. فتاة قروية، قادمة من أقاصي الجنوب، لتبحث عن المعرفة في هذه المدينة الشاسعة. فتاة عنيدة هربَت من قبضة مجتمعها الضيّق، ولجأت إلى العاصمة، حيث يحتمي الجميع. وهي تحاول أن تجد لها مكانًا في هذا البحر اللامنتهي. غريبة، في بحر غرابة، هل تفهم ذلك يا نادر؟

ويعود إلى ابتسامته الغامضة:

– وأنا واحد من أولئك الغرباء. تذكّري، لست ابن العاصمة.

– ولكنّك وجدتَ طريقك، على الأقلّ... دعني أصارع حتى أُنهي دراستي.

– وأنا، لن أقف بينك وبين طموحك. صارعي ما شئت، وتذكّري أنّ لك في هذه المدينة صديقًا.

وساعدتني صداقة نادر كثيرًا. دفء وجوده بدأ يذيب الجليد المكبّل قلبي.

4

وقبله كان قلبي مدينة مرصودة.

منذ أن دخلتُ هذه المدينة عاهدتُ نفسي على العمل بجدّ، والبقاء بعيدة عن دنيا الرجال. هناك مسافة عليّ أن أجتازها، والأفضل أن أكون وحدي. ولم تكن هذه المكابرة من دون أسباب.

خرجتُ من القرية ضد إرادة أهلي. كان يصعب على العائلة أن تقبل بخروج ابنتها على التقاليد الشديدة المحافظة لترتمي في أحضان المجهول، وربّما في بحر الضياع.

لم يسبق لفتاة من فتيات «جورة السنديان» أن شَقَّت هذا السبيل، وراحت تنشد العلم في العاصمة، وحدها.

توجَّهتُ إلى الجامعة وسجّلتُ اسمي في عداد طلاب السنة الأولى، ولمّا وصلت أمام الصندوق تذكّرت أنّ حقيبتي فارغة، وكنت قد تعرّفت إلى إحدى المدرّسات في معهد داخليّ قبلني لأعمل بضع ساعات مقابل إيوائي... عدت إليها أسألها العون، فلم تبخل به. اقترضتُ من «جليلة» مبلغًا يكفيني لتسديد القسط الأوّل، وفكّرت في أن أفيها المبلغ تقسيطًا.

بقي العمل: أين أجد عملًا يؤمِّن لي بقيّة نفقاتي؟

ومرّة أخرى امتدّت يد الزميلة الكريمة لتساعدني، هناك طلاب يبحثون عن مدرّسات خصوصيّات، لقاء أجر لا بأس به.

مثل راهبة في دير، عشت السنتين التاليتين، وأضفتُ إلى عملي، في التدريس، التحرير في مجلة أسبوعية.

عندما قابلت رئيس التحرير أبلغني أنّي نجحت في الامتحان، قبلوني محرّرة مبتدئة، براتب يبلغ مئتي ليرة في الشهر... لم أصدّق ما سَمِعت. شعرت بأنّ الأرض تميد بي وأنّي عاجزة عن تجرّع كأس الغبطة دفعة واحدة.

الفصل الخامس

1

أقول لها:

– الماضي ينطرح مثل مارد جبّار، ينام في قاعة تتّسع لحجمه العملاق. اتركيه، يا حنان، لا تدوسي فوق قدمه، حتى لا يستيقظ، ويتمطّى، ويلطمنا بأحد أطرافه. الماضي مضى، وأَمِنَّا شرّه. صرنا نعرفه. إنّه الدرس الذي حفظناه غيبًا، وأحيانًا من دون فهم.

فتقاطعني حنان:

– الماضي مضى، صحيح، ولكن كيف يكون المستقبل؟

سؤال آخر تقذفه حنان في وجهي، وتستحيل الإجابة عنه...

قلت لها والضيق يغلّف نبرتي:

– أحيانًا لا يمكننا أن نفصل الماضي عن الحاضر وعن المستقبل. وهذه الحرب جعلتنا ننسى الزمان والمكان، وننحشر في ثقوب الجدران.

فتابعت حنان:

– لكنّها أعادتني إلى الماضي. أنا، في غربتي، أَعيش في ذلك العالم المليء بالدفء والذكريات، لأقوى على مواجهة أيامي.

– لكنّ رسالتك لا تشير إلى هذا، فأنت تغرينني بالذهاب إلى لندن، لأعيش هناك، حيث «مركز الحضارة، وكنوز المعرفة...»، أتذكرين؟

ورَدَّت صديقتي بهدوء:

– المشهد يتبدّل كلّما تبدَّلتِ الزاوية التي ننظر منها... يا مها، لست أدري ما فَعَلَت بي هذه الزيارة لوطني، لمدينتي الغالية، بيروت.

– وكنتِ تفضّلين لو لم تأتي؟

– بل أتمنّى لو أبقى هنا، ولا أرجع إلى لندن. والآن لا أعلم كيف أقوى على البقاء هناك، بعدما غمست يدي في جراح وطني.

قلت:

– هناك زوجك، وأولادك، وأمّك المريضة.

فانتفضت تدافع عن نفسها:

– لن يفهم إنسان موقفي، ما لم يمرّ في هذه التجربة. لا تحكمي عليّ، يا مها، من خلال المظاهر والأقوال الخارجة من حدود الشفتين.

في رسالتي كنتُ مخلصة حتى أعماق الحروف. والآن أنا مخلصة في كلّ ما أقوله.

إنّي أحمل شخصيّتين مختلفتين، ولا أدري كيف أُوَفِّق بينهما.

وهززتُ رأسي:

– حين تصلين إلى لندن تعودين إلى التوحيد بين الشخصيّتين. في جوّك هناك، ما يساعد على ذلك، فتظلّ مشاهداتك ذكرى مؤلمة.

وثارت حنان:

– لم تفهمي قصدي يا مها. وفي الماضي كنّا نتفاهم من دون كلام. كيف أستطيع أن أترجم لك مشاعري وأفكاري؟

– عليكِ أن تقفزي فوق حرب السنتين، لتحقِّقي ذلك.

– لا تلوميني، يا مها. تعرفين كيف خرجتُ من منزلي. دموعي روتِ الطريق من البيت إلى المطار ثمّ من هناك إلى المنزل الآخر في لندن... بعدها لم تعد الدموع تجفّ.

– وفريد يُحِبُّ وجهك ضاحكًا...

ردّت بأسىً:

– فريد لا يكترث لشيء، سوى عمله. تعوّد وجهي في كل الفصول، ولم يعد يبصر فيه شيئًا جديدًا. وهو يتابع رحلاته الكثيرة وراء عمله. الغربة بدّلت الكثير من طبائع زوجي.

– وأنت تقاسين الغربتين.
قالت حنان باستسلام:
– أضيفي رقمًا ثالثًا لتقربي من الحقيقة.

2

لاحظتُ المبالغة في تأنّق حنان حالما فتحت الباب، وهفّ عطرها إلى أنفي. وبنظرة عاجلة قرأت ما تُعانيه صديقتي التائهة.
كانت ترتدي ثوبًا طويلًا. يكنس الأرض حولها، آخر ما جادت به أزياء لندن وباريس.
وتساءلتُ: هل للأزياء علاقة بالاضطراب النفسيّ عند المرأة؟
وما هي العلاقة؟
امرأة تقول:
«أرتدي ثيابي الأنيقة حين أكون في أدنى حالات التدهور النفسي. الأناقة تشجّعني وترفع معنويّاتي... وحين تغلّفني الغمامة السوداء، وتبدأ تتآوى داخل طيّات ذاتي، أهرع إلى المرآة، إلى الحلّاق، إلى عُلب الزينة أو الخيّاط... »
امرأة أخرى تقول:
«لأنّني سعيدة أشعر بأنّ الكون لا يسعني، وأنّي أكاد أخرج من ذاتي، وللتعبير عن تلك السعادة العارمة أختار الثياب الجذّابة والحليّ والعطور... »
وامرأة ثالثة تنظر إلى الاثنتين وتتابع اجتياز الطريق.
لا وقت لديها لهذه التفاهات. ويقولون إنّها فاقدة الأنوثة.
النساء أنواع.
من يستطيع أن يرصد مزاج المرأة؟
وهذه حنان تلج العتبة في ثوب بالغ الأناقة وقد زيّنت يديها بالأساور والدمالج الملوّنة ولفّتِ الشال الورديّ حول عنقها، وتركت الأقراط الغجريّة تتدلّى من أذنيها... وانسجامًا مع هذا الترف، ارتدت حذاء مقصّبًا.
قلت لها:
– حظُّكِ كبير أنّ الطقس صاحٍ، وإلّا لما كان في وسعك الخروج بالحذاء المقصب.

– إنّه أشبه بصيف لندن.

– إذن، تعودت المناخ البارد.

لم تجب حنان. ومشت إلى أوّل مقعد، فخلعَت حذاءها وأزالتِ الشال من حول العنق، ثمّ تمدّدت فوق المقعد باسترخاء، وارتدّ إليّ وجهها يتموّج فوق كفّ الزمن: ذاك وجهها آتٍ من الماضي، أجمل فتيات الجامعة، حنان. يلاحقها الشباب كيفما اتّجهت، ويبقى حولها موكب منهم في كل ساعات النهار.

جميلة، ذكيّة وأرستقراطيّة، وطيّبة إلى أبعد حدود الطيبة.

لقيتُها في مشرب الجامعة، وكنت ألجأ إليه حين يتوفّر في جيبي ثمن فنجان قهوة، فأجلس في الزاوية مع كتاب، وأرشف قهوتي بهدوء.

هناك أبصرتها، وكانت مثلي، وحدها، على غير ما تعوّدتُ رؤيتها.

ابتسمَت عيناها وهي تُلقي عليَّ التحية، فردَّدتُ تحيتها... وكان ذلك بدء الحوار بيننا. قالت، وهي تحاول أن تمهِّد السبيل: – إنّكِ أبدًا غارقة في الكتب، أوَليس لديك بعض الوقت لنتحدّث؟

أجبتها بفرح:

– الدعوة مغرية. أحاول أن أجد الوقت.

– إنّك قليلة الاختلاط بالطلبة...

– صحيح، ولكن عن غير قصد، إنّي أعمل وأَدرُس في آن واحد. وعليّ أن أُوَفّق بين الواجبين.

لكنّنا تواعدنا على اللقاء في مشرب الجامعة، الساعة العاشرة من صباح كلّ يوم، لنشرب القهوة معًا.

كانت حنان مسرفة إلى أبعد حد. وكنت متقشِّفَة بالرغم منّي، ولم تحاول أن تفرض ثراءها عليّ.

أذكر الآن وجهها، كان يضيء القاعة مثل نجمة فريدة، وفرحها يفيض على الجو، ويخلع هالة من الارتياح في نفوس أصحابها، ويحلحل جميع العقد.

حنان تقدر أن تجذب إليها أيّ إنسان بنظرة من تينك العينين السوداوين الطيّبتين، لكنّها لم تفتعل ذلك، ولم تحاول أن تلقي شباكها في سبيل أحد... كانت ممتلئة جمالًا ورضى، منصرفة إلى التحصيل العلميّ، وطامحة في أن تصبح كاتبة.

– هل يستطيع الإنسان أن يصنع من نفسه كاتبًا؟

طرحَت سؤالها عليَّ ذات يوم، وبات موضوع نقاش بيننا. الكتابة ممارسة ملازمة للحياة. الكتابة ليست مهنة، إنّها فن. والكتابة عالم المجهول الذي يحاول أن يلجه كلّ إنسان...

– لماذا تطمحين إلى الكتابة، يا حنان؟

وتهزّ كتفيها:

– ربما يدفعني توقي إلى المغامرة في دهاليز النفس البشريّة.

– وَعَمَّ ستكتبين؟

– عن كلّ شيء، بدءًا بأناس عايشتهم وتركوا بصماتهم فوق كياني.

– وهل يشجّعك أهلك على ذلك؟

– أكتب في الخفية، في السرّ، وأنشر في إحدى المجلّات باسم مستعار. لا، أهلي لا يعارضون، بل إنّ لأمّي بعض محاولات في هذا المجال، لكنّني خائفة... هل تدركين معنى كلامي؟

– وَلِمَ الخوف؟

– ليس سهلًا أن يتعرّى المرء أمام الغرباء... تعرية الذات أقصد... وأنت، ماذا تنوين أن تفعلي بهذا العلم الذي تحصّلينه؟

– سؤال طريف، يا حنان. حتّى الآن لم أفكّر. أقول لك بصراحة، أنا هاربة والعلم ملجئي. ولا تسألي عن سبب الهرب.

– جوابك يثير فضولي... ويبقى السؤال مؤجّلًا إلى موعد آخر. أمّا الآن فعلينا أن نسرع إلى الصف.

الفصل السادس

1

الأيّام تمرّ، وهي تعمل، مثل طاحونة، تعمل ولا تتوقّف... ولا تسأل نفسها: «إلى أين؟»...

تلك الفتاة الأخرى التي تمرّ أمام عيني الآن، على شريط الذاكرة.

يومًا بعد يوم، تشدّ جلدها، حول الجسم الناحل، وتسير في شوارع المدينة، مدينة الغرباء.

لم تكن تعرف أحدًا من سكان المدينة، وفي نفسها توق إلى أن يعرفها الجميع.

مثل أيَّة قرويّة ساذجة وطيّبة تتعامل مع الناس، مع تلامذتها، مع الطلبة في صفّها، هذا واحد من رفاق الصفّ يقترب منها ويبدأ معها حديثًا حول شؤون القلب، تنفر منه، تحتمي بالكتاب، فيعيد السؤال بعناد: – لماذا ترفضين الخروج معي؟ هل أنا «بعبع» يخيفك؟

وتنفر، مثل حيوان برّي لم يألف كلام الناس...

سلاحها النفور، سلاحها السهل، لا تستطيع أن تقول له: «نعم» ثمّ تتراجع. وتخشى أن تبوح بما يشغلها. ليس لديها وقت للحفلات، ولا الثوب اللائق للمناسبة. وهي هنا من أجل غاية واحدة: تحصيل العلم، لتتوسَّل به طريقها، إلى الوصول، والنجاح في العمل، والوقوف أمام أبناء قريتها بفخر، لتقول لهم إنّها اجتازت الامتحان.

تركض طوال النهار، وحتى منتصف الليل، بين الجامعة، والمعهد الثانوي، والطلاب الصغار، وعملها في المجلّة.

حين وصلت إلى الطابق الرابع من «دار الفجر»، المجلّة الأسبوعيّة التي قبلتها محرّرة ناشئة، وقفَت أمام النافذة المطلَّة على بيروت، وسرح نظرها فوق سطوح المباني وقد ارتدت نقابًا شفّافًا من ضباب الخريف. هذه المدينة، ما هي العلاقة التي تشدّها إليها؟

تحاول أن تجيب عن السؤال. تحاول أن تلج إلى قلب المدينة وتقيم معها علاقة حميمة، تجعلها مدينتها. ولكنّها الآن غريبة وبعيدة وكبيرة الطموح...

2

– إنّك الآن على الطريق.

قالت حنان وهي تشعل لفافة، ثمّ قدّمت إليّ العلبة. تردّدتُ بادئ الأمر، ثمّ تناولت واحدة ورحت أُدخّن من قبيل المجاملة، ورفعتُ إليها نظري بالسؤال: – أيّ طريق تقصدين، يا حنان؟

– الصحافة، مهنة البحث عن المتاعب...، أوَليس هذا الاسم الذي يطلقه عليها زملاؤك؟

أجبتها من دون تردّد:

– بكل تأكيد، يا حنان، إنّها مهنة متعبة جدًّا... خصوصًا بالنسبة إلى المرأة.

– تقصدين؟...

– أقصد أنّهم لا يعتبروننا ولا ينظرون إلينا نظرة جدّية. أولئك الرجال عاشوا في عالم مستقلّ ومتميِّز طوال أجيال، واليوم يزعجهم أن تخترق المرأة أسوار هذا العالم لتقف معهم على قدم المساواة.

ارتسمتِ الدهشة في عيني حنان، وقرَّبَت كرسيّها منّي وتابعت: – إحكي... إحكي لي أكثر عن هذه المهنة.

ابتسمتُ وأنا أسألها:

– ولمَ الدهشة؟ أوَليس هذا ما يحدث في الصفّ، بيننا وبين الطلاب؟... وحتى الأساتذة، لا تزال نظرتهم إلينا مختلفة يا حنان، أقول لك ببساطة: أمام المرأة مسافة بعيدة، عليها أن تجتازها من أجل إثبات الوجود... عليها أن تبرهن

لنفسها وللعالم أنّها خرجت من القفص الذهبيّ لا بقصد التسلية، بل للمشاركة في صنع عالم أفضل.. خرجَت، لأنّ في نفسها توقًا إلى المعرفة، ولديها طاقات نائمة، بل كانت مخدّرة طوال أجيال. خرجَت لتبني مستقبل أولادها.

والتقطَت حنان طرف الخيط:

– تفكّرين في الأولاد؟

– أجل، وليس بالضرورة أن يكونوا أولادي، فالمرأة هي الأم. كانت ولا تزال، وإلى أجل آخر. هي الحضن، وبالتالي إنّها تحمل بذار الخصب والإبداع، والمسؤوليّة.

لاحظتُ سحبًا تمرّ فوق وجه حنان. وأَشعلَت لفافة جديدة، ثمّ سحقتها في المنفضة بصورة آليّة...

تساءلتُ: «ماذا قلتُ حتى أثرتُ قلقها؟»، ثمّ خرج السؤال من بين شفتيّ: – لاحظتُ أنّ كلمة أولاد تثيرك، لماذا يا حنان؟

ظلّت عيناها عالقتين في وجهي من دون ردّ فعل. وبقي الصمت يطبق شفتيها، لكنّ أناملها كانت ترتعش.

– حنان... ما بكِ؟

سألتها لهفتي.

فكشحت القلق بابتسامة مفتعلة:

– يا مها، الأولاد أكبر مسؤوليّة، لكنّ المرأة لا تحملها منفردة... وفي بعض الأوقات، تُحرم هذه النعمة، نعمة المسؤوليّة أعني... في بعض المواقف يَنفونها... يسلخون ولدها من حضنها... وأنا مثال على ذلك: إنّي أعيش في مثل هذا المنفى.

قلت لها إنّي لم أفهم، فعادت تؤكد:

– لأَنّي أمّ، هل تصدّقين ذلك؟ ولي ابنة في الرابعة من عمرها، وهي لا تعيش معي، ولا أحمل مسؤوليّتها ولا أشعر بأنّها تخصّني... فإِذًا لا تُصدري أحكامًا شموليّة كما سبق وفعلت.

عقلتِ الدهشة لساني، ولم أدرِ ما أقول لها!...

حنان أمّ؟ ولها ابنة؟ هذه الظبية الشاردة المتحرّرة من كلّ قيد، هذه الفتاة الحاملة في عينيها السعادة والرضى والمرح!... هل كان كلّ ما أبصرته قناعًا

وهميًّا؟ هل تقدر حنان أن تخدعني إلى هذا الحدّ؟...

– هذا غير معقول.

سمعتُ شفتيّ تتمتمان.

وسألَتني ببساطة:

– ماذا؟...

– الموضوع، القصة كلّها. إنّها من فلتات عصر الرومنسيّة ونحن تخطّيناه... أم أنّنا لا نستطيع ذلك، ولنا أبدًا عودة إلى ينابيعه؟...

فَرَدَّت حنان بهدوء:

– رومنسيّة ماذا، يا مها؟ هذا قدري وبعض واقع عشته.

ثمّ حَنَت رأسها، وراحَت تتأمّل طرف حذائها بصمت، ولمّا عادت إليّ كانت الدموع تتموّج في بحر عينيها: – هذا يعلّمك ألّا تتسرّعي في إصدار الأحكام، يا صديقتي، أو تتوقفي عند ظواهر الأمور. عرفتُ الأمومة عند عتبة المراهقة... وكان عمري ست عشرة سنة.

الفصل السابع

1

لم أعلّق على كلامها بحرف.

كنت أحتاج إلى بعض الوقت والهدوء لأستوعب قولها.

حنان أمّ؟ وفي تلك المرحلة المبكّرة من عمرها؟ ولها ابنة؟ وأين ابنتها؟ ومن كان السبب؟

أسئلة راحت تتلاحق في ذهني وهي أمامي، وفي عينيها استعداد للبوح: – نعم، هناك شخص دفعني إلى الزواج المبكّر. وهذا الشخص كان أقرب الناس إليّ... إنّها أمّي. وهي اليوم تحمّلني مسؤوليّة الفشل. تجعلها فوق عنقي مثل النِّير. أنا ابنتها الوحيدة، هل تصدّقين؟

– أصدّق ماذا يا حنان؟

– ما سمعتِ... ما فَعَلَتهُ بي أمّي... هل تحبّين أمّك يا مها؟

كيف قفزت حنان إلى القاطع الآخر؟...

أجبتها عن السؤال الأخير:

– مثلما يحبّ كلّ إنسان عاقل أمّه... واسطة وجوده. أجل أحبّها.

وهزَّت صديقتي رأسها غير مكتفية:

– لا، لا أقصد ذلك. أسألك: هل تشعرين معها بالحرّيّة المطلقة، بالانفصال التام مع المحافظة على المحبّة؟ أم أنّها لا تزال تربطك بالحبل السرّي وتشدّك إلى صرّتها؟

لم أدرِ بماذا أجيب حنان، وأخمد أسئلتها المتراكمة... فسمعتُني ببساطة أقول لها: – لو كنتُ مشدودة إليها بذلك الحبل لما وصلتُ إلى هنا.

– وكيف قطعتِه؟... أخبريني؟

– الأمر في منتهى البساطة... في قريتنا تقوم «الدَّايَة»، «أمّ منصور»، بهذه المهمة.

ثمّ تابعتُ:

– حديثنا لا يخلو من الطرافة يا حنان، ويسجّل فصلًا في رواية.

– تمزحين يا مها؟... إنّنا فعلًا نسجّل فصلًا في رواية. ومشكلتي العالقة أنّي لم أولد على يدي «أمّ منصور»... وربّما نسي الطبيب أن يقطع الحبل السرّيّ في الوقت المناسب.

2

حنان تعود إلى الألغاز. تعود تتحدّث وكأنّها تخاطب نفسها: – إنّي وحيدتها، وهي تردفني إلى صدرها، تعاملني كطفلة. لم تترك لي الفرصة لأنمو. لم تسمح لي مرّة أن أجتاز المسافة التي تحدّد ظلَّها...

قاطعتُ حنان:

– ولكنّها سمحَت بالزواج؟

ضحكت صديقتي ضحكة يائسة:

– فعلَت ذلك في مرحلة باكرة، وقبل أن أفتح عينيّ وأعي واقعي... أَقدمَت على هذه الخطوة انسجامًا مع نفسها، وتعلّقها بي. فكرَت أنّها تستطيع أن تبقيني في راحة كفّها، ومعي الدمية الجديدة، الزوج...

كنت غير واعية حقًّا... ابنة «سائد العمار»... ابنة الأسرة الأرستوقراطيّة الموفورة العيش... جميلة وبنت عائلة... تفهمين هذا التعبير. وتقدّم ذلك الفتى يخطبني. كان في العشرين من عمره... بالأصحّ، تقدّم أهله وخطبوني من والدي مثلما تفعل كل أسرة محترمة... وتَمَّ النصيب. أقول تَمَّ برغم معارضة أبي. كان، رحمه اللّه، يريدني أن أُنهي دراستي، لكنّ أمّي وقفَت في وجهه معترضة: – لماذا لا نسأل حنان؟

وبعدما غادرَنا الخطّاب دعتني إلى غرفتها، وراحت تمسح بأناملها الناعمة فوق جبيني: – ما رأيك بفادي، يا ابنتي؟

قلت لها: «إنّه شاب وسيم. هذا كل ما أعرفه عنه»...

اتَّسعَت ابتسامتها:

– وهذا يعني أنّه يعجبك. إنّه يحمل الكثير من الصفات اللائقة بخطيب ابنة «سائد العمّار»... وسيم وذكيّ، وثريّ وابن جاه... ثمّ إنّك وحيدتنا، وهذا الزواج يبقيك في حضني... أهله من أقاربنا وثروته لا تأكلها النيران، وأنتِ في أوجِ تألّقك... يا ابنتي مثل هذا النصيب لا يطرق الباب مرّتين... فكّري... مع فادي تعيشين ملكة.

هكذا وضعَت أمّي المعادلة، بكل بساطة.

لم أكُن أفهم معنى الزواج. وراحت هي تبني لي ذلك القصر المُغري.

وفي الواقع، كان فادي يسكن مع والديه مثل ذلك القصر. ولم يكن لي هدف أتّجه إليه سوى الزواج... ولم لا...

واغتنم فادي كلّ لحظة، ليطرح شباكه في طريقي. راحت الدعوات تتكرّر. الحفلات الساطعة... وكان عليّ أن أظلّ متألّقة كنجمة لأملأ مكانتي الجديدة وأُرضي أمّي وخطيبي ابن المليونير «سعيد الهاني»...

أنبش هذه الذكريات من أعماق الماضي المتلاشي كحلم، وكأنّ كلّ ما حدث لا يخصّني، بل حصل مع إنسان آخر. ولا أصدّق أنّ هذه الطالبة الجامعية، الجالسة أمامك، تروي الحكاية بحياديّة تامّة، هي نفسها التي قفزَت إلى الطائرة، متّكئة على ذراع «فادي الهاني»، ووقفَت فوق سلّم الطائرة تلوّح للأهل مودّعة.

كان ذلك الزواج، بالنسبة إليّ، مغامرة وبطاقة سفر.

وحين حطّت الطائرة في البلد الغريب، شعرت بألم في المعدة، ومددتُ أناملي أبحث عن موطن الألم، فإذا بأطراف الأنامل تتوقف عند الصرّة... وإذا بها تتسلق الحبل الوهمي، الحبل الذي لم ينقطع...

دخلتُ غرفتي وبكيت بمرارة. ولم يدرك فادي ما بي. ظنَّها نوبة شوق وافتقاد للأهل والوطن.

جلس أمامي لا يدري ما يقول. ورحتُ اتأمّلُ وجهه، وكأنّ عينيّ تتفتحان لأوّل مرّة: شعرت كم هو بعيد عنّي، كم هو غريب ومجهول، ذلك الإنسان الذي أَسلمتُه جسدي في لحظة من لحظات الزوغان.

وأتساءل الآن، يا مها، أيّة سخافة تبطِّن الكلمات! وأنتقي كلمة «حبّ» مثلًا... هذه أعظم الكلمات. ولكنّنا نُحَمِّلها في بعض الأحيان، أتفه ما في وجودنا، ونهبط إلى هاوية الضياع، ونُثَقِّلها بالقيود والشهوات الماديّة، فتضيع... تذوب مثلما تذوب الدمعة النقيّة في حرقة الصحراء.

وبدأ فادي يتحوّل أمام عينيّ. صار إنسانًا غريبًا، لا تربطني به صلة، وصرت أنا فتاة تائهة فقدَت أمّها في غابة موحشة وجلست تبكي، تريدها أن تعود إليها وبأيّ ثمن...

لم يترك فادي كلمة لطيفة إلّا وسكبها في أذني، ولمّا شعر بعجز الكلمات، حملني إلى مطعم فخم، وطلب شرابًا فاخرًا دعاني لأتذوّقه، وقال لي إنّه منعش، يقوّي الروح، ويردّ إليّ حيويّتي، واستطرد: – يمكن طقس «باريس» لا يلائمك، سوف ننتقل إلى شاطئ «الريفييرا».

وبعدها طال تنقّلنا بين الأسماء المشهورة في القارّة الأوروبيّة. وامتدّ شهر العسل إلى ثلاثة أشهر. ورحتُ أتسلّى بشراء المغريات: الجواهر، الفراء، الثياب والتحف... كانت كفّ فادي مثل ينبوع سخيّ، وكنت أُنفق من دون حساب.

لم أتوقّف مرّة لأفكّر كيف يدبّر الناس المال. كنت أعتقد أنّهم يقطفونه عن الشجر، أو يستخرجونه من صناديق مخبّأة في قاع البحر.

ولمّا عدتُ إلى بيروت، كنت سكرى بكلّ ما شاهدت، وتهافت الناس للسلام علينا، وتهنئتنا.. وزاد الضياع. وبقي الألم يعاودني كلّما اقترب فادي منّي، فأصرخ، ولا يتجاوز صوتي حدود الشفتين: – أريد أمّي.. أين أمّي؟

كانت تزورني، ولا تتخلّى عنّي، وتزوّدني بالنصائح لأبقى محتفظة بحبّ زوجي.

آه لو تدري أمّي!

لو تدري أنّي لم أُحبَّ زوجي لحظة واحدة. وما شدّني إليه هو تلك المغريات المحيطة به. ولما ألفتُ القشرة الخارجية، عاد كل شيء إلى طبيعته، وبرزت

النتوء في علاقتنا. وذوى الجمال فوق وجهي الطفل، صار شيئًا عاديًّا ألفته عينا فادي. ثمّ... وُلِدَت «رنده».

يا مها، تعرفين، بعض الزهور تتفتّح وتتألّق في ليلة واحدة، وفي الصباح تذوي، وتتّكئ أعناقها على جذوع أمّهاتها ببؤس.

هذا تمامًا ما حصل.

كانت ولادة «رنده» الفجر الجديد، وخاتمة العلاقة مع زوجي.

أَتخَمَتني الأشياء الكبيرة والصغيرة، الثمينة والتافهة. كلّها صارت بلا معنى، ولم أعِ أهميّة المسؤوليّة الجديدة.

وعادت أمّي تتدخَّل:

– اتركي رنده في عهدتي وانصرفي لرعاية زوجك... رافقيه في سهراته وحفلاته، ومهمّاته الاجتماعيّة.

في تلك الأيّام البعيدة، كنت أدخل غرفة رنده لأتفقّدها، وأحملها بين ذراعيّ لحظات، ثمّ أعيدها إلى المربّية لألبّي نداء زوجي، وأرافقه إلى الحفلات.

تقولين: «الأطفال مسؤوليّة الأمّ»؟ أنا هربت من أوّل الطريق. لم أحمل مسؤوليّة رنده، ولا المسؤوليّة الزوجيّة، ثمّ صارت الحياة تفرغ مع مرور كلّ يوم.

وكان المنقذ الوحيد في حياتي، حضن أمّي.

وبقيَت هي تشدُّ ذلك الحبل السحريّ لتظلّ سيطرتها عليّ كاملة.

وفي يوم لم أعد أستطيع أن أحتمل، فانفجرتُ أمامها باكية: – أريد أن أترك فادي.

صرعَتها الكلمات. الطلاق محرّم في عائلتنا، ولم يكن هناك سابق إنذار. وهي تعتقد أنّ ابنتها تعيش في ذروة السعادة.

قفزت من فوق كرسيّها، واقتربت منّي، ثمّ راحت تهزّ كتفي: – انظري إليّ جيّدًا... ماذا سمعت؟

أجبتها بهدوء:

– ما سمعتِه بالضبط. لا أُطيق الحياة معه بعد اليوم. أريد الطلاق.

– والسبب؟

سألتني وكأنّها تصفعني على عينيّ.

– لا أحبّه. لا أطيق وجوده. ألا يكفي هذا سببًا؟...

– ولكن أنتِ اخترتِه.

– وأنتِ أغريتني بالقبول. لم أكن أدرك معنى الزواج وأنت دفعتِني إليه دفعًا.

ابتلعَت كلماتي وهي تجلس بقربي، ثمّ لفَّت ذراعها حول خصري: – يا بنيّتي، لا تردّدي مثل هذه الكلمات الخطرة مرّةً أخرى. إيَّاك أن تُسمعيها لأبيك أو لزوجك.

قلت لها، بلا تردّد:

– زوجي يعرف ذلك.

وزعقت:

– يعرف ماذا؟

– أنّي لم أعد أحبّه... وهو لا يهتمّ بي، وبدأ يغازل امرأة أخرى.

– مجنونة!...

جمعت أُمّي غضبها في الكلمة ثمّ راحت تردّدها، ربما لتشفي غلّتها: – مجنونة... مجنونة. لن تعودي الليلة إلى بيتك، تبقين عندي، ريثما أشفيك من هذا الجنون...

الفصل الثامن

1

امتلأت المنفضة بأعقاب السجائر، وحنان مسترسلة في الكلام، في نبش الذكريات. كنت مشدودة إليها بخيط سحريّ، نسينا زماننا ومكاننا، وغرقنا في ذلك الدفء المغري. وأخيرًا رفعت حنان نظرها إليّ، وكأنّها تقرأ تأثير روايتها فوق وجهي، وبقيت نظراتها مسمّرة في عينيّ لحظات، قبل أن تعود هي وتستأنف: – يا مها، حدَّثتُك عن زهرةٍ تتفتّح وتذوي في ليلة واحدة، وبعد الذبول تتّكئ على عنق أمّها.

تلك الزهرة أمامك الآن. لم يغمض لي جفن في ضيافة أمّي، وكان همّها الأكبر ألّا يشعر أبي بشيء ممّا يحدث لي. وفادي لم يسأل عنّي، وربّما نام هو خارج البيت...

لا تطلبي منّي وصفًا دقيقًا لتلك الأوقات المظلمة من عمري. حين لا يكون الحبّ، لا يعود للعلاقات الإنسانيّة أيّ معنى. وعلاقتنا كانت فارغة من كلّ المعاني، والرابط الوحيد الذي ظلّ يشدّنا هو رنده. جعلَتها أمّي الورقة الأخيرة في المساومة: – عليك أن تضحّي، من أجل ابنتك.

رفعتُ إليها عينيّ الذاهلتين:

– أُضحّي بماذا؟ بشبابي ومستقبلي؟ وهل أنت قانعة؟

قالت أمّي:

– أنا لا أريد فضائح، ولا أُطيق شماتة الناس بنا، هل تفهمين معنى ذلك؟

أجبتها بهدوء:

– إنّك امرأة ذكيّة، وأقاويل الناس لا تهمّك، خصوصًا أنّ سعادة ابنتك هي القضيّة.

ردّت بانفعال:

– سعادة ابنتي هي في البقاء بجانب زوجها.

– وإذا كان هو الرافض؟

فصرخت أمّي بضيق:

– لا أصدِّق... هذا مستحيل!...

وكان على أمّي أن تصدّق كلّ حرف ممّا قلتُه. ففي نفس فادي أضعاف ما في نفسي من الضجر وعدم الاكتراث. ولمّا اجتمعت أمّي به في اليوم التالي، عادت خائبة تفرك يديها وتردِّد: – يا ويلنا من لسانات الناس.

قلت بلا اكتراث:

– لا تخافي، فالموضوع لن يُلهيهم سوى أيّام ريثما تبرز «فضيحة» جديدة.

وعادت أمّي تغربل الإمكانات الأخرى:

– لماذا لا تسافران، يا حنان؟ تقومان برحلة استجمام، وتتركان رنده في عهدتي.

فضَحكتُ بيأس من دون أن أُعلِّق. إلى أين نسافر؟ وذكرى أشهر العسل تتراكم في ذاتي كالمومياءات.

وصارحتُ أمّي بقراري النهائيّ:

– علاقتنا انتهت، هل تدركين ذلك يا أمّي؟... حبّ عاش عمر الفراش، وتلاشى أمام نور الحقيقة، وعليك أن تتقبّلي هذا الواقع.

– ولكنّي أخاف على أبيك. ثمّ تذكَّري أنّ لك ابنة.

صرفتُ أمّي بلا مبالاة:

– أبي، أنا اتكفّل بأمره. وابنتي تعيش.

ولم يكن النبأ مفاجأة لأبي، ذلك الرجل الهادئ الصامت، كان يشعر، منذ البدء، بأنّنا أقمنا البناء فوق الرمال.

قال لي، من دون أن يُبدي انفعالًا:

– تعودين إلى ذراعيّ مكرّمة معزّزة... أعتقد أنّنا ارتكبنا بحقّك خطأً كبيرًا.

ولأوّل مرّة شعرتُ بالدموع تتسرّب إلى عينيّ، ثمّ تتدحرج بعفويّة وسخاء: – الخطأ يقع عليّ. وأنا مستعدّة لأن أتحمّل النتائج... لكنّي آسفة لما سَبَّبتُ لكم من ألم.

ثمّ تلاشى كلّ كلام حين جذبني المغناطيس الدافئ إلى استدارة ذراعيه. رميتُ رأسي فوق كتفه وتابعت ذرف دموعي، بحرارة. وكانت يده تربِّت كتفي وشفتاه تُتَمتِمان كلمات غير مفهومة. ولمّا عدت إلى مواجهته كنت قد شفيت من وخزات القلق، وأخذت منه شحنة من الشجاعة والثقة بالنفس.

أمّا أمّي فكانت منهمكة في حياكة قصة ترويها لصديقاتها وتحدّ بها من نشاط ألسنتهنّ الخبيثة.

وسمعتها فيما بعد تردّد في صالونها بقناعة: – البنت كانت صغيرة، وأخطأنا في تزويجها.

وردّت صديقتها «أم عصام» بلهجة لا تخلو من التحدِّي: – بعض البنات يتحمّلن مسؤوليّة الزواج في مرحلة أبكر... لكنّ الدنيا قسمة ونصيب.

لا أدري لماذا ارتعشتُ وتجمَّعت نقمتي مثل كومة أشواك في صدري.

لم أسمع أمّي تدافع عنّي، بل تقبَّلت قولَ صديقتها باستسلام، وكأنّها تتنصّل من مسؤوليّتها، هي التي أغرتني ودفعتني إلى تلك الخطوة... هي التي صوّرت لي الزواج جنّة السعادة، وهي التي أبقت ذلك الرباط يشدُّني إليها ويصيبني بالألم كلّما حاولتُ الابتعاد عنها.

أبقتني بقربها لأظلّ في حجم قبضة يدها.

أدركتُ الحقيقة متأخّرة... ولكي أُخفيها رحت أرتدي الأقنعة... رصفتُها فوق وجهي وكياني، واحدًا فوق الآخر، وخرجتُ إلى الناس إنسانة جديدة، لا تحمل من ماضيها سوى بقايا الذكرى.

لست أعلم لماذا حَمَلتِني على الكلام يا مها، والعودة إلى ذلك الماضي المدفون تحت رماد الأيّام المنسيّة... إنّها أوّل مرّة أتحدّث فيها عن تجربتي.

2

ثمّ عادت حنان إلى مرحها:

– أنتنّ الصحافيّات، لكنّ أسلوب عجيب في سحب المعلومات. لقد سحرني صمتك، وأغراني بالبوح.

قلت لها:

– وأنا سعيدة جدًّا لهذه الثقة. بَوحك قَرَّبني منك وجعلني أشقُّ ولو واحدًا من الأقنعة الكثيفة المغلِّفة كيانك.

استمرّت في دعابتها:

– وأنت؟... هل ترتدين أيّ قناع؟

ابتسمتُ لأتهرّب من الإجابة، ولكنّ عينيها المنتظرتين أعادتاني إلى الحقيقة:

– يا حنان... يبدو أنّ الأقنعة تبدأ تتكون فوق وجوهنا، حالما نخطو خطوتنا الأولى في مواجهة الحياة ومواجهة الآخرين وتلقّي الصدمات... نرتديها دروعًا للوقاية، ولكي نحافظ على لحظاتنا الحميمة وأحاسيسنا الرقيقة. والمرأة تميل إلى التقنّع أكثر من الرجل، لأنّها، في تربيتها الحاليّة، أشدّ الاثنين حساسيّة وليونة. ولكنّ عصرنا لا يسمح لنا بالاستمرار خلف القناع، وإنّ التحدِّي كبير. ها هو يواجهنا في الجامعة، في العمل...، لو كنت في موضعك لألّفت رواية، وتكون هي الوسيلة الأولى لرفع أوّل قناع.

– تقولين هذا لأنَّ الكتابة سهلة لديك.

– لا يا حنان. كل إنسان يستطيع أن يكتب ولو قصة واحدة ناجحة في حياته... قصته الحقيقية. ونحن، فيما نقرأه من روايات وقصص، نحاول أن نبحث عن مقاطع تائهة من قصتنا.

– لكنّي لم أحاول أن أكتب سوى الأبحاث الدراسيّة.

– وهذه مدخل إلى باب التأليف. المهمّ أن تنوي، والبقيّة تأتي.

– وتساعدينني في إصلاح الأخطاء.

– كلِّي استعداد... المهم أن تكوني قانعة، لتروي الحكاية بحرارة واخلاص.

– ولكنّي لم أخبرك الحكاية كلّها!

– وهذا ما يجعلها مغرية... مشوّقة. ألا تعرفين «ستنا» شهرزاد؟...

– يكفي ما أخبرتك يا مها. والذي تلا ذلك كان صراعًا على عدّة جبهات، تعبتُ منه إلى حدّ الانهيار. كان عليّ أن أصارع ضمن دائرة الأسرة، ثمّ المجتمع، والضمير الذي بدأ يخزني كلما وقعت عيني على الطفلة وفكرت في

مستقبلها... لا أنكر أنّ الوالد ساعدني. كان يفرش لي ساعديه لأعبر فوق النهر الهائج من دون أن أسقط... ولكنّ المساعدة الخارجيّة تظلّ محدودة، علينا أن نغوص إلى أعماق تجاربنا، ونواجه أقدارنا بشجاعة. وكانت مواجهتي لونًا من الهرب. أجل هربت إلى الكتاب، والتحقت بهذه الجامعة، واهتمّت الوالدة بشؤون الطفلة...

– وبعد ذلك؟

سألتها، لأملأ مسافة وقفت بيننا، فهزّت رأسها وهي تفرش بسمة ساخرة فوق الشفتين: – تعرفين قانون بلادنا. إنّه يقضي بأن تحتفظ الأمّ بطفلها حتى السن السابعة، وبعدها يسترجعه الأب، إلّا إذا صار اتفاق آخر بين الوالدين. هذا الاتفاق لم يحصل. ولم تكن عندي حماسة كبرى تدفعني إلى أن أتعلّق برنده وأجعلها مستقبلي، وما دامت أمّي تتولّى مهمة تربيتها، فإنّ الرابط الذي يشدّني إليها ليس قويًّا. وهكذا، يكون ذهابها إلى أبيها أمرًا طبيعيًّا. هل فهمت؟

لم أجب عن سؤالها المباشر. وفي الحقيقة أنّي لم أفهم هذا التصرّف من حنان. كيف تتخلّى عن الطفلة بتلك السهولة؟

ولم أودّ أن أجرح شعورها، فلزمت الصمت.

لكنّها تابعت كلامها تلقائيًّا:

– على كلّ، جوّ الدير حيث أقيم لا يلائمها، ليس فيه طفلة واحدة، وأنا أعيش في غرفة خاصّة، بعيدة عن اجتماعيات الوالدة ليتسنّى لي أن أدرس.

ثمّ أضافت وهي تنهض عن الكرسيّ:

– كفانا ثرثرة. قومي لنلحق بالزملاء إلى صف الفلسفة.

كان عليّ أن أبذل جهدًا لأنتشل نفسي من أعماق البئر السحيق الذي دفعتني إليه حنان، ثمّ أسير بقربها، لنتّجه كلانا إلى قاعة المحاضرات... وكنت طوال الطريق أداعب هذه الفكرة: حنان شخصيّة زئبقية، ولن يمكنني التعرّف إليها بسهولة.

الفصل التاسع

1

عبثًا أحاول أن أسجّل طعم تلك الأوقات الهاربة... إنّها ملك الماضي، وكنت قد أبقيتُها هناك، نائمة تحت تراكم عشرين عامًا إلى أن جاءت حنان، فخبطتِ الباب العتيق بقدمها، وانفتح مثل شفتين جَفَّفَهُما اليباس.

باب الماضي! تعيدني إليه حنان، تقذفني إلى داخله زيارتها آخر الليل.

2

كنتُ قد أخفيت عن حنان خبر العلاقة الناشئة بيني وبين نادر.

في تلك الأيّام الأولى الراجفة، كنّا نلتقي خلسة، لقاءات يغلّفها الخوف وتسوّرها الشكوك.

ماذا يريد نادر؟ ماذا يريد منّي؟

تُدرك الفتاة الجواب، ولا تبوح به. وتمشي في طريقها، مخدَّرَة الإرادة.

تكون هذه حالها في أوّل الطريق. ونادر يطلّ عليّ من كلّ مكان. كنت ألتقيه في باحة الجامعة، في المطعم، على الطريق المؤدّي إلى عملي، يبني جسوره في كلّ اتّجاه، ولم يكن سهلًا عليّ أن أهرب، أم أنّي لم أشأ الهرب؟

كان جاذبٌ خفيٌّ يشدّني إليه، وكلّما التقيته، كنت أعد نفسي بأن يكون هذا آخر لقاء بيننا. وأجلس لأضع الخطّة لبدء الحديث معه ومحاولة التخلّص بلطف

وأدب. لن أستطيع أن أرتبط به أو بأيّ شاب... يرهبني التفكير في ما يمكن أن ينتظرني خلف هذه المحاولات البسيطة.

الارتباط! وأنا أَنشُدُ الحريّة. الإقدام على المجهول! وأنا أخشى المغامرات...!

ولكن، ما نكاد نلتقي في اليوم التالي، حتى أتخلّى عن كلّ المخطّطات السابقة. أمام نظراته تنهار مقاومتي، وأشعر بأنّنا نتقارب، حتى نكاد ننصهر ونتحوّل إلى إنسان واحد.

كنت أجد عنده كلّ ما ينقصني من طمأنينة ومرح وثقة وهدوء... وكان يفتح لي، بساعديه القويين، عوالم جديدة ويدعوني إلى دخولها برفقته.

خطوة، خطوة، رحنا نتقدّم، وكنت أعود إلى نفسي، حين تلفُّني الوحدة بين جدران غرفتي الهادئة، فاعاتبها على ضعفها وانزلاقها في خدر المشاعر اللذيذة، واندفاعها نحو بوابة المجهول، بصحبة إنسان غريب.

وينبري الصوت الداخلي مصحِّحًا:

– لكنّه ليس غريبًا... نادر أقرب إنسان إليك... أَوَلا تشعرين بأنّكما تعارفتما قبل أجيال؟

وأصمت موافقة.

أعرفه، ولكن هذا لا يكفي لأَنساق خلفه هكذا من دون تساؤل.

ويبتسم لي، تلك البسمة الرائعة التي تبدأ في العينين الذكيّتين، ثمّ تنفرش فوق قسمات وجهه قبل أن تتكسّر وتصبح شعاعات تنفذ إلى أعماق القلب، تنير ظلمته، تدفئه، وتذيب نتوء الصقيع...

وفي بعض الأحيان، كنت أثور عليه وعلى نفسي، كردّات فعل لهذا الاستسلام، ثمّ لا ألبث أن أخجل من تصرّفي ونزقي.

كنت أحسّني طفلة غريرة أمام إنسان خاض مع الحياة بعض جولات وخرج منها منتصرًا، واثقًا بنفسه، ممتلئًا حكمة ونضجًا.

ولم يكن لي سوى حنان، صديقة ألجأ إليها، وأخبرها بما يساورني من قلق وشكّ.

أَصغَت إليّ بصمت، ولمّا انتهيتُ قالت بهدوء:

– كلّ ما أستطيع قوله الآن: لا تتسرَّعي، لكنّي أشعر في قرارة نفسي بأنّك لن تفلتي من قبضة هذا الإنسان. إنّ نادر من النوع الذي لا يتراجع، ولا تخيفه

العقبات، وهو مصمّم على المضيّ معك حتى نهاية الطريق.

انتفضتُ أسألها:

– أيّ طريق يا حنان؟ لا أبصر أمامي سوى الضباب.

وابتسمت صديقتي بمكر:

– والشعاع النافذ من عينيه الضاحكتين، ألا يكشح الضباب، ويُزيل الغشاوة عن عينيك؟

لم أُجبها. كنت أعرف أنّها تصيب كبد الحقيقة. وأنّها قرأَت أفكاري وشعرت بأنّ الميزان يُرَجِّح كَفَّةَ نادر.

وعادت صديقتي تسألني بغنج:

– ومتى نتعرّف إليه؟ متى نلتقي نحن الثلاثة؟

السؤال فاجأني ولم أدرِ بماذا أجيبها. فأَنقذت هي الموقف باستطرادها: – لماذا لا ندعوه إلى فنجان قهوة هنا، في مشربنا المتواضع؟

– فكرة لا بأس بها، أعني الدعوة، لكنّي أُفضِّل مكانًا خارج الجامعة. ما رأيك في أن نتناول الشاي معه في مقهى «النسر الأسود»؟

3

وقبلَت حنان.

كان ذهابها برفقتي مفاجأة لنادر. حدّثته عنها من قبل، ولم يشجّعني لأمضي في سرد المزيد من أخبارنا. كانت أفكاره تدور حول موضوع واحد: تثبيت علاقتنا.

ولقاء حنان لم يمرّ من دون أن يسجّل أَثره، لقد تسلّحت بكل جاذبيّتها وتألُّقها، وطرافة أحاديثها. وشعرتُ، في بعض الحديث، أنّ نادر يبتعد عنّي ويقترب منها. كان الحوار بينهما في غاية الانسجام. هي مثله، تجيد الكلام الحاذق، والنكتة العذبة وسرعة الخاطر، ولا تتأبط جدّيتها إلى مراتع اللهو.

رحتُ أبتعد عنهما، وأغيب في غمام الماضي.

عدتُ إلى أزقة القرية، ورحت أركض حافية القدمين، وقد تمزَّق ثوبي من تسلّق الأشجار. وعدتُ سمراء كَوَتها شمس تموز وآب بين حقول القرية وكرومها... وعاد الصقيع يلتهم أصابع يديّ وقدميّ في الشتاء القاسي، وعادت

أصوات المربّين والأقارب تصرخ فيّ من كلّ اتّجاه: «ما هكذا تتصرّف البنت المهذبة... أنت غير الصبيان... انزلي عن الحائط... سوف ينقصف غصن اللوز وتقعين... انزلي».

وينبري صوت أمّي مرتفعًا على كلّ صوت:

– يا بنتي ألن تعقلي؟ ماذا يقول عنكِ الناس؟ انظري، مزّقتِ ثوبك... ثوبك الجديد. احملي المكنسة وقشّي الدار... يا اللّه!...

وتتكمَّش أصابعي الناحلة بقبضة المقشّة، ويرتفع الغبار يُزَكِّمُ أنفي.

غبار، وحشة وصقيع، ولفحُ الهجير أيّام الصيف.

أشعر بالاختناق.

قفزتُ واقفة، فارتعش نادر:

– ما بكِ يا مها؟

– لا شيء. الجو حار جدا، لَيتَهُم يفتحون نافذة.

هرع هو إلى النافذة وفتحها، فهبّت علينا نفحات باردة غرزت في مسام جلدي وغاصت حتّى النخاع.

صقيع كانون الأوّل.

وسمعتُني أُتمتم:

– لا. البرد لا يُطاق، والهواء مزعج.

وكنت أعرف أنّ ما بي يتعدّى التأثيرات الطبيعيّة. كانت الرعشات الحارة، والرعشات الباردة تهبُّ عليّ مع تموّجات العاطفة وتحوّلها، وتحوّل نادر عنّي إلى مسايرة صديقتي.

في تلك اللحظة، تأكّدتُ أنّ اهتمامي به ليس اهتمامًا عابرًا... وكان وجود حنان بيننا امتحانًا لحبِّنا.

لم يفت نادر أن يلاحظ تقلّب مزاجي، بل ربّما انصرف إلى مسايرة صديقتي ليمتحن ردود فعلي...

حتى الآن لا أعلم، وبالطبع لم أسأله... لكنّه في نهاية تلك السهرة، وحين أوصلني إلى بوابة المعهد، أخذ يدي واحتضنها بين يديه وهو يردّد: – ثقي بأنّه لن يفرّق بيننا إنسان.

كانت كلماته الجسر الأوّل يمتدّ بيننا. وحين تسلّقتُ السلّم المؤدّي إلى غرفتي، كنت أشعر بخفقان جديد في قلبي، وبحماسة لم أعهدها في نفسي من قبل. وفارق النعاس جفنيّ، ولم أشأ أن أدفن رأسي بين أكداس الدفاتر والكتب.

جلست أمام النافذة أتأمّل شجرة النخيل المتشامخة فوق سطح البناء. كانت تتلوّى أمام الرياح العاصفة، ولا تخضع... ولا تكاد الرياح تسكن حتّى يعود رأسها إلى الشموخ. وفي الفضاء، كانت الغيوم تتلبَّد، وينفذ منها إلى غرفتي ذلك الغموض الرائع الذي يولِّده الشتاء في نفوسنا... وحين عدت إلى ذاتي، شعرت بأن حرارة يدي نادر ما تزال تسري في عروقي حاملة معها التأكيد الصارخ: لم يعد غريبًا عنك... هذا الإنسان بدأ يدخل إلى ذاتك الحميمة.

ولم يعد نادر غريبًا ليلة رأس السنة، حين حمل خاتمًا ذهبيًّا علقه في بنصري وهو يردّد: – هديّة السنة الجديدة.

قبلتُ هديّته ببساطة، وحَنَوت رأسي بخجل حين لامست شفتاه شفتيّ بعفويّة، وفرَّت من بين شفتيّ كلّ الكلمات، وراحت تغطس في البحر... في ذلك الحاجب الضيّق من البحر المطلّ علينا من بين أكداس المباني. وشعرتُ بثقل جديد فوق كتفيّ، إنّها المسؤوليّة الجديدة، القبول بدخول عالم مشترك. بعد اليوم لستُ وحدي، لست حرّة، وأنا اخترت ذلك القيد، برضى وتعقُّل، وسرتُ إلى نادر المسافة التي اجتازها هو باتجاهي، ثمّ مشينا معًا، من دون أن نُفَصِّل الفعل بالكلمات والحروف.

كنت واثقة بأنّ نادر ينفذ إلى أعماق نفسي بتفهُّمه، ومحبّته، وحنانه. وصرت أتطاول على رؤوس قدميّ لأستطيع الوصول إلى موازاته، لأحاول فهمه ومشاركته والسير معه في رحلة العمر الموحشة.

التقينا ولم نقل كلمة. مع أنّ كلامًا كثيرًا كان يضجّ في صدري، يحاول أن يفجّره.

كنت أُسكِّن العاطفة وألجمها، وأعِدها بلقاءات الغد المقبل.

4

وكان عليّ أن ألتقي حنان، في الجامعة. لاحظتِ الخاتم في يدي فصاحت: – مبروك... أخيرًا...

باختصار، عبَّرت عن كلّ ما تحسّه تجاهي.

وكنت مشتاقة إلى سماع المزيد عن نادر، وهل يعجبها حقًّا أم أنّها تمثّل؟

ولكنّها سبقتني إلى الكلام حالما جلسنا نرشف قهوتنا:

– لا، لا تقولي شيئًا يا مها. لا تطرحي الأسئلة، دعيني أنا أتكلّم وأقول لك: لو لم يكن هناك شابّ مثل نادر لكان علينا أن نخترعه.

ثمّ ضحكت حنان طويلًا... وعادت كلماتها تقفز قفزًا:

– قولي لي، ماذا أصابك تلك الليلة؟ هل كانت نوبة غيرة؟ ألم تلاحظي أنّي كنت أمتحنه من أجلك؟

أجبتها باستسلام:

– وكان هو يمتحنني. وكنتما تتلاعبان بعواطف فتاة ساذجة، لا تجيد التراشق بالكلام الذكيّ، بل تُحسن الإصغاء إليه... أقول لك يا حنان إنّي نادمة على تصرّفي... نادمة!

– وماذا ينفعك الندم؟... على كلّ اسمعي ما أَوَدُّ أن أقوله لك بكل بساطة، إنّ نادر رجل حرّ، ذكيّ ومرح. وذلك أروع ما أطلبه عند الرجل.

الفصل العاشر

1

صوتها يرتطم بذرّات الهواء في غرفتي فيُحدث ارتجاجًا حولي، وأشعر بموجات مكهربة تهزّ وجودي.

ها هي تقتلعني من مكاني وزماني وتسرق منّي لحظات الراحة، كما تخطف النعاس من جفني.

– يا حنان، هل أُعِدُّ لك فنجان شاي؟ إنَّكِ ترتعدين بردًا. خذي هذا المعطف، ضعيه فوق كتفيك.

أحاول أن أعيدها إليّ، بالكلام. بأيّة وسيلة أعيدها إلى الواقع وأختصر ما تنوي البوح به.

وتظلُّ هي هاربة من بين أصابعي... مثل قطرات الزئبق تنزلق لتستقر في وعاء هي اختارته.

وهي مُصِرَّة على عنادها. ذلك العناد اكتسبته خلال غيابها عنّي، وعبر سنوات الجفاء...، لا، «الجفاء» ليست الكلمة المناسبة...، أقول: الغياب القسريّ.

وكان قد سبق غيابها الأخير عدّة رحلات خارج لبنان. لم تنذرني ولم تأت مرّة لوداعي. فقدتُ أثرها، وضاعت منّي طوال سنين...

وكانت كلما رجعَت من رحلة، تتّصل بي، وتهزّ الجِواء حولي، وتعيد سكب الزئبق بين راحتيّ من جديد.

– يا حنان، ماذا قلتِ؟

– فنجان شاي هو ما أحتاج... إنّها الرابعة صباحًا أليس كذلك؟

شفتاها فقط ترافقانني، وعيناها سارحتان في مطرحهما البعيد. حاولت أن أتحرّك من مقعدي لأُلبّي طلبها، فشدّتني بطرف ثوبي وهي تردِّد: – ابقَي هنا..

ابتسمتُ وأنا أتابع طريقي:

– الشاي يحتاج إلى من يُحضِره. لحظات وأكون معك.

– إذن، آتي معك.

لحقت بي إلى المطبخ وهي تلفّ المعطف حولها وتجّر رجليها جرًّا: – أخاف أن أبقى وحدي. الفجر لم يطلع بعد..

ألقت بنفسها على كرسيّ المطبخ وانتظرت بصمت. ولمّا ناولتها فنجان الشاي راحت ترشفه بنهم: – إنّه أطيب شاي ذقنه. هل تذكرين شاي «ميشلين»؟ كان طعمه مثل «الدلف» حسب تعبيرك.

قلت لأملأ الفراغ:

– لكنّ مقهى ميشلين كان ينعم بالهدوء.

– أجل، أتذكرين الهدوء والسلام؟...

– أيّام لن تعود... مهما حاولنا يا مها، سوف تبقى في خانة الذكريات... تلك الأيّام أعني.

– بالطبع لن تعود. وأنت باقية في لندن، ونحن نخرج من تحت الأنقاض.

– وفي لندن المستقبل للأولاد. للصغار الذين يكبرون. وأنا أخشى ذلك المستقبل بالذات. أهرب من التفكير فيه. الحياة في لندن نعيم للأطفال ومتعة للشباب والطلّاب، للجماعات المتحرّكة، ولكنّ المدينة جحيم للمسنين. هذه هي مشكلتي ولا أدري كيف أتخلّص منها.

قلتُ بسخرية:

– لم يَحنِ الوقت لتفكّري في الشيخوخة. إنّك في عزّ الشباب.

وصمتت حنان لحظات قبل أن تتابع:

– يا مها، بعض المنعطفات يضطرّك إلى القفز عبر السنين. والتغيير الذي نعيشه يضعنا وجهًا لوجه مع الكثير من المشاكل المؤجّلة. في الغربة، لا يمكنك إلّا أن تواجهي هذا الأمر، عشته عبر أمّي وتجربتها، قبل مرضها كانت تخرج يوميًّا إلى الحديقة العامّة ولا تجد بين مئات الناس من يلقي عليها التحيّة. وتعود إلى المنزل كئيبة، ويزداد شعورها بالاغتراب واقتلاع الجذور. مشكلة الانتماء

هذه تظلّ مرافقة للانسان عبر السنين التي يعيش، والرحلات التي يجتاز. والأمر يختلف بالنسبة إلى أولادي، إنّهم يتربَّون في مناخ لندن وحين يكبرون سوف نكون عالة عليهم وعثرة في طريقهم.

قاطعتها قائلة:

– هذه حال الأهل مع أبنائهم في كل مكان.

وَهزَّت حنان رأسها نافية:

– لا... هنا، نحن مستعدون للتضحية. لم نقطع علاقتنا مع الماضي، أمّا هناك فالأولاد يبحثون عن لذّاتهم ويتطلّعون أبدًا إلى الأمام. والعاجز يدخل المؤسسة الخاصّة به، أو يموت وحيدًا.

خذي أمّي، لولا تربيتنا المحافظة لوضعناها في إحدى دور النقاهة، فهي بحاجة إلى عناية دائمة.

واعترضتُ:

– ولكنّها ليست عاجزة إلى هذا الحدّ؟...

– الانفجار الدماغيّ ليس مزحة، وقد تركها شبه مشلولة. وسوف تبقى كذلك دومًا. لكنّ جرحها البليغ هو الغربة. لو كانت هنا، لكان يزورها يوميًّا الأصدقاء فتتسلىّ بهم، ويخفّفون من ثقل حملها... هناك الحياة وحدة تامّة، وكأنّما الإنسان يعود إلى الرحم وتُسَدُّ خلفه المنافذ. هل تفهمين هذا؟...

هَزَزتُ رأسي مؤكّدة:

– نعم يا حنان، أُقدّر الوضع تمامًا. ولا أستطيع أن أنصحك فأقول: «عودي إلى مدينتك الغالية... عودي إلى بيروت»، لأنّ العودة إلى بيروت الماضي مستحيلة.

– بل أتوق إلى العودة الآن، اليوم. مدينتي، حبيبتي، تحتاج إليّ. آه لو أستطيع أن أغمرها بذراعيّ، أواسي آلامها، وأُبلسِم جراحها!... أَعجَز يا مها، عن وصف ما يتفجّر في ذاتي من عواطف.

– ولماذا لا تسجِّلين ذلك كتابة؟...

أجابت حنان بأسى:

– الكتابة في المنفى أمر مستحيل.

وكانت حنان قد اختارت المنفى في مرحلة سابقة، حين لجأت إلى دير منعزل وتركَت قصر أبيها، وعهدَت بتربية رنده إلى إحدى المربيّات، بإشراف أمّها.

قلتُ لها آنذاك:

– إنّك تبحثين عن المشاكل بدل أن تحلِّيها.

وردّت بنزق:

– الحياة في المنزل باتت لا تُطاق. جوُّ البيت يخنقني ولا أستطيع أن أتابع دراستي. والدي اقتنع بهذا الترتيب، وأمّي وافقت على مضض.

قلتُ مداعبة:

– ومن الدير سوف تتخرّجين وتحت إبطك قصة ساحرة.

– بل أتابع دراستي بهدوء وسلام، بعيدة عن صخب المجتمع وتفاهته.

– في الحقيقة أنت بعيدة عن المجتمع الذي ربيتِ فيه، والعلامة هذا الثقب المستدير في نعل حذائك!...

وضحكنا، ودمعت عينا حنان وهي تقول:

– تلاحظين كلّ شيء... لم أنتبه لنعلي أو حذائي...

– وأنا حريصة على هذه الملاحظة، كما أحرص على رتق نعلي وثوبي... عليّ أن أحمي ظهري في هذه المدينة التي تحكم على المظاهر... وحين لا يكون عندك سوى حذاء واحد، فإنّك تحفظينه مكرّمًا معزّزًا.

وضحكنا معًا على هذه الفذلكات الكلاميّة. لم تكن عقدة الطبقيّة تقف حاجزًا دون تقاربنا. كان هناك لقاء إنسانيٌّ بين رافضتين: حنان ترفض الالتصاق النهائيّ ببيئتها المترفة، والتي تستعبدها بمعطياتها الماديّة وتقاليدها الثابتة، وأنا أرفض أن أبقى عبدة لبيئة تكبّلني بفَقرِها، وضيق أفقها.

على هذا الصعيد التقينا، وكان بيننا ذلك التفاهم الكلّيّ، والانسجام الذي عجزت عن زعزعته سنوات الفراق والغربة.

3

وها هي تتناول فنجان الشاي بأناقة، ترشف منه رشفات قليلة، ثمّ تسرح قليلًا بنظرها، ويتأرجح بيننا الصمت الثقيل. وفي لحظة تنسيني حنان مكاني

وزماني، وتنقلني إلى زاويتنا الحميمة في مشرب «ميشلين»، وكأنّنا نقفز فوق متن الأيّام الماضية... وكأنّه لم تكن بيننا سنوات غياب، وزواج وأولاد.

تمتمت شفتاها:

– إنّه ألذّ من شاي الساعة الخامسة في لندن.

قلت مداعبة:

– إنّه شاي الرابعة صباحًا بتوقيت بيروت.

والتفتت إليّ فجأة متسائلة:

– تعتقدين أنّها ستعمر قريبًا، بيروت؟... ماذا تفكّرين؟ ما هو شعور الناس؟

وجاء جوابي سؤالًا:

– ما هو شعورك أنت؟

– لا أستطيع أن أحدّده. هناك تناقض غريب يتململ في ذاتي... حين تأمّلتُ حجم الخراب الذي لحق بالمدينة، وسرتُ في تلك المقبرة الشاسعة من ساحة الدبّاس حتى فندق «الهوليداي إن» كنت أفكّر في أن ستمرُّ عشرات السنين قبل أن تنطوي هذه الصفحة القاتمة، ويعود وجه بيروت يشرق من جديد. ولكن عندما وصلت إلى منطقة «الروشة»، ووقفت أمام بسطات التجّار، أراقب الحركة النشيطة، انتابني شعور آخر، فكّرت أنّ الإنسان القويّ، الجبّار، الإنسان الذي لا تقهره الشدائد، موجود هنا، فوق هذه البقعة من الأرض. إنّه مزروع في أعماق التربة مثل أشجار السنديان والأرز في الجبل.

هذا الإنسان لم تقتله الحرب ولن تستطيع أيّة قوّة أن تمحو اسمه من سفر الوجود.

وقفتُ أتأمّله، ذلك الجبّار، الواقف أمام البحر الشرس، يتحدّى الإعصار، ويتصدّى للعاصفة، بصدره العاري، وعينيه المليئتين بالعزم والصمود...

من زيارة «الروشة» عدت بأمل واعد، ونظرة جديدة.. وأقول لك إنّه لن يمرّ وقت طويل قبل أن يزول الدمار، وتعود المخازن الأنيقة ترصّع صدر العاصمة... وتعود حبيبتي بيروت جوهرة الشرق.

– وتعودين أنت إليها...

انتفضت حنان:

– اسكتي يا مها، حتى لا تزيدي جراحي عمقًا. أنا، لم أعد أستحقّ الحياة هنا، فإنّي لم أتحمَّل لحظة ألم من أجلها. لم أَسِر خطوة فوق طريق الجلجلة، لذلك لا أطمع بالمسير في موكب القيامة.

الفصل الحادي عشر

1

كان على بيروت أن تنهض برغم كلّ ما حدث.

حَبَّةُ الحنطة، متى دُفنَت في التربة تحزن فترة قصيرة، وتعاني آلام الظلمة، لكنّ نطفة الحياة لا تلبث أن ترتعش في أحشائها وترسل الأوراق الخضراء لتعانق نور الشمس.

كان على بيروت أن تشهد القيامة ويشهدها معها آلاف المواطنين الذين عادوا، مثل حنان، ليسجّلوا أسماءهم في دفتر الحضور.

وبيروت، في الماضي، كانت مسرح أحلامنا...

2

– هل تذكرين كم حلمنا؟ كم نسجنا من آمال، في تلك اللقاءات البعيدة المنسيّة؟

طرحَت سؤالها في الهواء، وأومأتُ برأسي موافقة والحنين يشقّ سبيله إلى حنايا الذات.

وتابعَت حنان حديثها، وكأنّها في حلم:

– لماذا انتقموا منها هذا الانتقام الرهيب؟ أوَيكرهون نفوسهم إلى هذا الحد؟

أحبّوا المدينة إلى أقصى درجات الحبّ، إلى حدود النقمة والكراهية وكأنّما كانوا يتلذّذون بقتلها، كلّ واحد بوسيلته الخاصّة... هذه المدينة المعطاء!... هذه

الفريدة بين المدن، الفاتحة صدرها، وعبر السنين الماضية، لكلّ من يطرق بابها!... بيروت!...

– والآن تصدّقين... «توما» قام بالزيارة، ووضع إصبعه في موضع الجرح، وتلمَّس أثر المسامير، وآمن!

وهزَّت حنان رأسها نافية:

– لا أستطيع أن أصدّق. ولم أصدّق ما رأَت عيناي وسمعت أذناي في منفاي البعيد. كانت الأنباء السوداء تندلق علينا من شاشات التلفزيون، من الإذاعات والصحف، وكل الوسائل الإعلاميّة. وكنت أوهم نفسي بأنّ الجسد الذي يمارسون فوقه كل ألوان الحقد والتعذيب والتنكيل ليس جسد مدينتي الغالية... كنت أُخرس الأصوات المترجّعة حولي، وأَبني جُدُرًا كثيفة من الأوهام لأحتمي، وأنجو بنفسي... فلا أنهار نهائيًّا.

وأنا لم أعترض، كان عليّ أن أصدّق كل ما قالته حنان، بل اقتنعتُ بأنّها هي الغائبة عن مسرح المعاناة، لم تستطع أن تهرب من آلام نفسيّة أصابتها في أعماق كيانها، وبدت فوق وجهها تجاعيد مبكرة، تحمل كل واحدة منها قصّة ألم.

تأمّلتُ تلك التجاعيد وحبستُ الكلمات. لا يمكنني أن أجرح هذه الإنسانة العزيزة، وأنا أعلم كم تحمَّلَت من آلام العيش، كم صارعَت عبر الأشخاص الذين نبتوا لها في طريق الحياة، مثل أشواك القندول... وظلَّت هي تجرجر طفولتها المتخلِّفة وتسير، ولا تدري كيف تردّ الهجمات الضارية... وكانت النتيجة هذه الآثار المحفورة فوق صفحة الوجه، وحول العينين، وفي تجاويف القلب.

وكان يمكن لحنان أن تعيش مثل أيّة فتاة من طبقتها المترفة، وترتدي درع الثراء والجاه، فلا تصيبها شوكة من أشواك الطريق.

ولكنّه القلب الحيّ النابض بين ضلوعها، ولكنّها نفسها القلقة المرفرفة أبدًا، في محاولات متتالية للهرب، والبحث عن الجديد، ومواكبة أهل الأرض في مسيرتهم الشاقّة بدل الانعزال في البرج العاجيّ، وخلف الستائر الفاخرة في قصر أبيها.

تصرّفها كان مَثَار جدل بين طلّاب الجامعة: لماذا تسير حنان في التظاهرات الطلّابيّة؟

هل تستطيع إنسانة مثلها أن تفهم لغة الطبقات الكادحة؟

لماذا تقف في طليعة التظاهرة التي نظّمها طلبة الجامعة، من أجل تحرير الجزائر؟

ماذا تعرف هي عن مشكلة الجزائر؟

كنت أسمع التعليقات من كلّ صوب، وأحاول أن أدافع عن إخلاص حنان، وأحاول أن أقنع الزملاء، بأنّ هناك عبوديّة عميقة تكبّل كيان صديقتي، وتكبّلنا جميعًا نحن الذين نعيش في هذا الزمن الرديء... وإذا سارت حنان في التظاهرة، فهي تفجّر قلقها، وتوقها الشخصيّ إلى التحرّر، وتحوّله إلى رافد يصبّ في المجرى العام... ومثلها المئات، بل الآلاف، من الشباب الواعي...

وأحيانًا، كنت أصمت أمام التعليقات، وأفكّر في أنّه يأتي يوم يفهمون فيه مواقف حنان، وإخلاصها. وكنت وحدي أستطيع أن أُغرق إصبعي حتّى أعماق ذاتها، وأضعه على الجرح النازف، الجرح الذي خلّفه مجتمعها في صميم كيانها.

ووحدي، من دون سائر الرفاق، دخلتُ صومعتها الجديدة، في «دير المحبّة».

3

دعتني إلى زيارتها برفقة نادر، ولم أتردّد.

دخلنا حجرتها البسيطة، والتي تحوي، إلى جانب السرير الحديديّ، كرسيّين وطاولة، هي المكتب والمائدة. ووضعَت في ركن قصيّ برّادًا صغيرًا، وموقد غاز...

كانت غرفة صغيرة جدًّا، ولكنّها تتّسع لشخص أُتخِم من ثراء المادّة، وتتّسع بصورة خاصّة للصداقة.

أعَدَّت لنا حنان الشطائر المحشوّة بالجبنة، واللبنة وزجاجة نبيذ. وجلسنا، نحن الثلاثة، نتحدّث في كلّ المواضيع، وخيط الألفة يربط بيننا ويقرّبنا، ويجعلنا نغوص في أعماق اللحظات، نفجّرها من حولنا، ونعي قيمة مرورها لحظة لحظة.

بدت حنان مرتاحة كما لم أرَها من قبل، وانسجم نادر في هذا الجوّ الأليف، فراح يسرد الفكاهات والنوادر ويتناولنا بسخريته اللاذعة، وكنت أفكّر في أنّ ما ينقصنا، هو رفيق لحنان، يشاركها العيش والأفكار... ولَمَّحتُ لهما بما يخالج فكري فتهرَّبَت من طرح الموضوع بجدّيّة، وقذفَت به إلى الجوّ الساخر: – المؤمن لا يُلدغ من جحر مرّتين.

قلت:

– ولكنّ المؤمن لا يتوقف عن السعي، إنّه يسير أبدًا، فوق دروب إيمانه.

وردَّت فجأة:

– لم أعد مؤمنة برفقة الرجل، وأمامي الآن مواضيع أهمّ.

– مثلًا؟

– الدراسة، وتحصيل نقاط عالية تُرضي الأهل، وتخفِّف من ثقل الإحراج الذي سبّبته لهم بخروجي من المنزل.

– ولكن، هذا لا ينفي الموضوع الآخر.

وختمت حنان الحديث نهائيًّا:

– لست ممن يحبّون المزج بين عدة مواضيع... لكلّ شيء تحت السماء وقت.

4

وتمرّ الأيام، وتُكَدّس آثارها فوق جلودنا. وحين ألتفت الآن إلى الماضي أفكّر: كيف مضى الوقت بسرعة؟...

كان القطار مستعجلًا، وتسلّقنا إحدى عرباته معًا، ثمّ افترقنا في منتصف الطريق. وكان ذلك الانعطاف الأوّل في صداقتنا، هي سافرت إلى لندن لتتابع تحصيلها الجامعيّ، وأنا سافرتُ إلى الحياة الزوجيّة، وغرقتُ في تبعاتها ومسؤوليّاتها، من دون أن أتخلّى عن دراستي وعملي في المجلّة.

وكنت ألتقي حنان لقاءات قصيرة كلّما زارَت بيروت في أثناء العطل المدرسيّة، كما صرت أتابع باهتمام وشغف ما تنشره لها إحدى المجلّات الأسبوعيّة من مقالات وأقاصيص.

وكانت قصصها مستوحاة من أجواء الغربة، ولا علاقة لها بالفتاة التي عرفتها، أو بحياتها الخاصّة.

مرّةً واحدة عدتُ معها إلى عالمها الحقيقيّ في قصة «السنونو» إذ جعلَت بطلتها طفلة صغيرة تضيع فوق إحدى الجزر، وتنقذها من الهلاك أسراب السنونو.

من كانت الفتاة؟ حنان، أم طفلتها رنده؟

حتى الآن لا أدري، لأنّ الشخصيّتين تتداخلان في تصوير رمزيّ يثير الإعجاب، فإذا الأمّ تتقمّص شخصيّة الطفلة، لكنّ الصغيرة لا تلبث أن تشبَّ وتصبح امرأة ناضجة.

لم أستطع أن أُبقي إعجابي سرًّا، فكتبتُ مقالةً عن القصّة في زاويتي الأسبوعيّة، وأشَدتُ كثيرًا بالأديبة الواعدة حنان العمّار.

قَرَأَت كلمتي، فكتبَت تشكرني، وتَعِد بالرجوع القريب إلى ربوع الوطن. وكانت تلك سنتها الجامعيّة النهائيّة.

وعدنا فالتقينا من جديد وكنت قد فرغت من دراستي الجامعيّة، وصرتُ أمًّا لطفلين.

هذه العبارات القصيرة تختصر سنوات مُترعة بالأفراح والآلام، والمعاناة. ما أسهل الكلام على الماضي!

وأطلَّت عليّ حنان ذات يوم مثل باقة أزهار برّيّة. كانت الغربة قد أكسبتها النضج والتوازن، وازداد تألّقُ عينيها بوعيٍ جديد، وهدأت نبرة صوتها... كانت تحمل بين يديها ملفًّا كثيفًا وضعَته قربها وهي تتمتم: – مجموعة أوراق، قد تتآلف وتتلاحم لتؤلِّف قصة.

سألتها بلهفة:

– روايتك الأولى؟

وردّت دون اكتراث:

– إنّها مجموعة ملاحظات. لم يكن لديّ الوقت اللازم لأكتب رواية، لذا اكتفيتُ بكتابة القصص القصيرة. لكنّ هذا هو العمل الأوّل الذي سمحتُ فيه لقلمي بالامتداد.

– ومتى يبصر النور؟

– ذلك يتوقّف على الهمّة والجوّ.

وكلمة جوّ أعادتنا إلى الحديث عن العائلة، وأخبرتني أنّ والدها أُصيب بنوبة قلب حادّة. ولذا عادت لتقيم مع والدتها.

ولما سألتها عمّا ستفعله بعد الآن، ابتسمَت بشرود وقالت: – لن أبقى حبيسة المنزل. هذا أمر مُؤكّد، وأُفضِّل أن أجد وظيفة لا تُرهقني، لأستطيع أن أتابع الكتابة.

ولم تلبث حنان أن وجدت تلك الوظيفة في مكتب سياحي، وصارتِ المسؤولة عن العلاقات العامّة فيه. وحين أبدَيتُ دهشتي لاختيارها تلك الوظيفة أسكتتني بقولها: – أريد أن أضيع بين البشر نهارًا، لأعود إلى نفسي في الليل، فأسهر وأكتب.

ولم تُفَصِّل لي موضوع روايتها. كانت تتهرّب منّي كلّما سألتها وتلجأ إلى القول: – عندما أنشرها، تطّلعين عليها.

كانت واثقة من نفسها ومن عملها، فلم تشأ أن تعرضه على أحد. وبقي ظلٌّ غامض يتأرجح في عينيها. ظلّ خوف، حاولتُ أكثر من مرّة أن أفهمه وأخفَقت.

وأَدركتُه جيّدًا، فيما بعد، حين نَشرَت الرواية وحملتها إليّ لأقرأها.

كانت تخشى ردّة الفعل عند والديها، ولدى أبيها بصورة خاصّة، فهو السند الأقوى الباقي في وجودها. كانت تخاف على قلبه ألّا يتحمّل الصراحة الواردة في روايتها. لكنّ القدر يتدخّل أحيانًا ويفرض مشيئته دون مشورتنا.

وخلال بضعة أيام، تدخّل القدر ثلاث مرّات في حياة حنان، وهزّها من أعماق الجذور: انتقل والدها إلى رحمة اللّه، ودون أن يقرأ الرواية.

حان الوقت لأن تنتقل رنده إلى عهدة والدها.

صدرت روايتها وأثارت ضجَّة كبرى لم يسبق أن أُثيرت حول كتاب، منذ سنوات.

لقد اعتبر النقّاد الرواية من الأعمال الرائدة، وصفعة قاسية على وجه المجتمع المُرائي، ورأوا في المؤلفة صورة للبطلة التي تتطلّع إليها الباحثات عن التحرّر من قيود التقاليد.

وكانت صديقتي تسير بين هذه الأحداث وكأنّها في المنام، لا تصدِّق ما يحدث لها، أو ما يدور حولها. واكتشفت فجأة أنّ الشهرة ليست ذلك البريق الجذاب

اللطيف، بل هي مسؤوليّة ثقيلة تحلّ فوق الكتفين، وعلى صاحبها أن يحمل النير ويمشي... الشهرة قَيدٌ جديد يغلّ عنقه.

وهربَت من شهرتها إليّ ذات يوم وهي تردِّد:

– لا...، لا أستطيع...، لا أطيق الأضواء، فأنا لم أُخلق لأكون نجمة، بل نبتة ظلّ...

ابتسمتُ بهدوء وأنا أرُدُّ على قولها:

– إنّه نداء القدر، ونتيجة سعيك وثمرة تعبك. لماذا تكتبين إذا كنتِ تتهرّبين من الشهرة؟...

– كتبت لأتنفّس. على كلّ حال لا أستطيع الكتابة بعد الآن.

قلت لها:

– أعطي نفسك بعض الوقت. أنتِ مشغولة بأمور كثيرة. والكتاب مثل الطفل. الولادة هي الحدث الهامّ المثير، لكنّ عمليّة التربية هي الدأب الصامت الذي يلتهم الجهد الباقي. أعطي نفسك بعض الوقت، يا حنان.

لكنّ حنان صارت تبتعد عنّي تدريجيًّا. وافتقدتُها ذات يوم فلم أجدها.

اتّصلتُ بوالدتها، فأخبرتني أنّها انتقلت إلى عمّان، لتعمل في فرع للشركة، هناك.

كيف لم تخبرني؟

ولماذا اختارت الغربة؟

الوالدة لا تعرف...، أو هي تجاهلتِ المعرفة، وكنت وحدي أدرك أنّ حنان اختارت الغربة لتهرب من قبضة أمّها، من قدرها المتسلِّط. وفي عمّان، التقت «فريد»، بطاقة سفرها نحو الغد الجديد.

الفصل الثاني عشر

1

المدينة والفجر، وهي، وأنا، وهذه الغرفة تلتفّ حولنا، وتعزلنا عن الوجود.

تراكمتِ الكلمات وصارت جبالًا.

فتحتُ النافذة لأفسح لها في المجال لتخرج.

ثقيلة كانت الساعات، تمرّ فوق رموش أعيننا مثل حجر الرحى! وحنان تسحبها من مخابئها وتعدّها واحدة واحدة.

صديقتي تُجري حسابها مع الماضي وتَقرَع صدرها ندمًا وتطلب الغفران.

قلت لها:

– هذا ليس شعور الأكثريّة الساحقة من المقتلعين الذين انسلخوا عن صدر المدينة وهجروها.

أبصرتُ مواكبهم تعود، مثل مواكب الأفراح. أبصرتُهم قبل يومين، في المطار، السيّدات يرتدين الثياب الأنيقة، أحدث أزياء لندن وباريس، والرجال يسيرون خلفهنّ، مزهوين، والأولاد عيونهم فارغة! تدور في كلّ اتّجاه باحثة عن الوجوه الأليفة.

عادوا، كأنّ حربًا لم تقع. وشظايا الحرب لم تنغرس في أجسادهم المرفّهة، ولم تتمشَّ تحت جلودهم، وتجعلهم ينزفون دم الحياة.

إنّهم أحياء. وجوههم تطفح بالبِشر والفرح.

ونحن الذين بقينا هنا، نسينا طعم الفرح، وفقدنا الأحلام. هل تعرفين ما معنى أن نفقد أحلامنا يا حنان؟

لم يَعُد شيء ممّا حولنا إلى سابق عهده، وعواطفنا تحوّلت. مرّ السيف فوق وجودنا، واجتثَّ الرأس وبقي الجسد، ينزف بلا إحساس.

يا حنان، هل تذكرين، لحظة ما في حياتك، حين كبرتِ فجأة، خرجتِ من صفّ الأطفال، ولم تعودي تفرحين بثوب العيد؟ بحذاء العيد؟ هل حاولتِ أن تسترجعي تلك اللحظة المفقودة؟

نحن، كلّ يوم، نحاول ونفشل. وأنا اقتنعتُ الآن، مثلما اقتنعت قبل سنوات، بانّ القفز من الطفولة إلى مرحلة النضج يتمُّ في اللاوعي، ويظلّ واحدنا، في وعيه أو اللاوعي، يحاول أن يستعيد ولو الذكرى.

إنّه التحوّل.

العاقل يتقبّله، بل ينتظره على أنّه المحتوم الذي لا مَفَرَّ منه! ويعتبر اللحظات أوراقًا في تقويم فوق الجدار... هكذا هي الحياة.

2

كنتُ أحكي، وحنان غارقة في صمتها، في وقفتها الجامدة أمام النافذة، تتأمّل الفجر الزاحف على المدينة.

تركتها مع نجواها، وغطستُ في فراشي، مرهقة، مُخَدّرة.

حاولتُ أن أختلس غفوة قصيرة تعيد إليّ بعض نشاطي، وإذا بيد تشدّني من يدي، ويلتفُّ الساعد حول خصري بحنان.

إنه نادر عاد من السفر.

فتحتُ عينيّ باحثة عنه...

لا، لم يكن نادر هناك، وسريره بقربي فارغ، مثلما اعتدته في الأشهر الطويلة التي مرّت على فراقه... وتمتدّ بيننا تلك المسافة من صقيع الفراق. ومن قبل كانت أيدينا في تشابك متواصل، مثل أفكارنا، مثل عواطفنا.

مع نادر وصلت إلى مرحلة إنكار ذاتي، واتحدنا روحًا وجسدًا، حتى كدنا نمحو ثنائيّة الزواج.

هذا لم يحدث في المرحلة الأولى من زواجنا. وكان العام الأوّل صعبًا علينا، وكنت أُغرق قلقي في الدراسة والعمل، وأحاول، فيما تبقَّى من الوقت، أن أبني معه عمارة شركتنا الزوجيّة.

معًا سرنا فوق أشواك الشكّ، باتّجاه منافذ اليقين.

معًا حملنا شموعنا في الليالي الداجية وأوقدنا نار الدفء لنطرد الصقيع من بيننا.

وكان شهر العسل أصعب مرحلة، ثمّ تَلَتهُ أشهر التعارف والتمازج، والتوافق. كنّا غريبين يحاولان الجلوس فوق مقعد واحد، ويسافران في رحلة صوب الغد المجهول. يحاولان أن يدخلا معًا بوّابة يعرفان أنّها ستغلق خلفهما، وتتركهما في الداخل، غريبين، التقيا في ظلّ نعمة الزواج.

– هل تقبلين «نادر الهمام» زوجًا لك؟

حنيت رأسي بخشوع أمام سؤال الكاهن وقلت: «نعم».

– هل تقبل «مها الحطّاب» زوجة لك؟

وأجاب نادر بنعم.

وسجَّلَ الكاهن الجوابين في خانة واحدة.

تلك الطقوس، كيف تسوّر المشاعر وتغلّفها، حتّى لا يعود المرء يشعر بما يجري له أو حوله، ويمشي محمولًا فوق سواعد الأقارب والأهل والطقوس المرعيّة.

وتمّ الزواج في حفل مختصر. وبعد ذلك قمنا برحلة إلى أوروبا. وعشت في خدر الحلم، وكنت أخرج أحيانًا من عالم الحلم لأثور من دون سبب. لم يكن نادر يدرك سبب ثورتي، وكان هو يثور كذلك، ولا أفهم سبب ضيقه... وأعلم الآن، بعد مرور تلك السنوات، أنّنا كنّا غريبين في دنيا غريبة... بل كنّا أشبه بكوكبين يحاولان تحقيق اللقاء الدائم، مع كلّ ما يرافق ذلك من صراع.

أَبتَسِمُ الآن، وأنا أذكر الآلام النفسيّة التي عانيتُها في تلك الأيّام الأولى، ولم أبح لنادر بها. فعلى رغم المحبّة، وقدسيّة الإكليل، وبركة الزواج، كان لا يزال غريبًا عنّي.

بل كانت تفصل بيننا التقاليد التي تربَّيتُ ونشأتُ عليها، وجَعَلَتني بعيدة عن عالم الرجل، عالم الرهبة، والغموض.

لذلك، كان من الطبيعيّ أن تتعثَّر خطواتي في تلك المرحلة الأولى.

ثمّ بدأنا نتقارب. بل كان لا بدَّ لنا من ذلك التقارب.

وبكثير من الخجل والشعور بالذنب، قَدَّمتُ له جسدي. وبقي الحبّ يعيش في عشه الرومنسيّ رافضًا أن يعترف بعلاقة الجسد.

ومن أجل أن تتمّ المصالحة، بين الحبّين، كان عليّ أن أتخطّى الأسوار التي رفعها المجتمع حولي، منذ الطفولة... ومنذ تلقَّيتُ الدرس الأوّل في المسلك والدين.

تلك اللحظات الصعبة لن أنساها... وكان حبّنا لا يزال في طور البرعمة، ولم يختمر بخميرة الأيّام. ثمّ بدأ الحبّ يسيطر علينا، ويتسلّم سيادته... واستسلمنا له، وذابت الرواسب المتحجّرة. وتحرَّرتُ من أصوات المربّين الصارخة في أذني، في كلّ لحظة: «الرجل ذئب، وعلى الفتاة ألّا تثق به.

الفتاة جوهرة مكنونة يجب أن تُصان في شرنقة أُنوثتها، وتحتفظ بجسدها نقيًّا، نقيًّا. والرجل مصدر الدنس.»

وحفظتُ جسدي طاهرًا نقيًّا مثل زهرات الليمون التي زَيَّنَت إكليل الزفاف.

حفظتُه هكذا، لأقدّمه ذبيحة مقدّسة لهذا الرجل.

والرجل؟ ماذا يفعل الرجل؟ يقف فوق بيدر الموسم، وينتظر الجني.

هكذا علّمونا، وعلى هذه الأفكار نشأنا في عالمين متباعدين، وحتى عدائيين. وهكذا ننصاع في اللاوعي، إلى تلك الأصوات الداخليّة الهادرة كموج البحر، ونمضي في الحياة، محاولين أن نخرسها، ونقنع أنفسنا باتّنا أذكياء.

كنت أعرف ما سيقوله نادر لو بُحتُ له بواحد من تلك الأفكار المتصارعة في رأسي، لو حدّثته عن الأمواج الهادرة في صدري، المندفعة إلى عينيّ حرقات نديّة، وإلى مسام جسدي لتوقد فيها نيران الثورة.

كان سيصرف كلامي بقوله:

– هذيان.. تظلّين في عالم الأحلام، ولن تهبطي إلى أرض الواقع... بلى، فوق ساعدي سأنزلك درجة درجة، وأخرجك من صدفة عزلتك. في كلّ لحظة من لحظات حياتي سأحاول ذلك، فنحن الآن زوجان. إنّما علاقتنا تتعدّى الزواج التقليدي إلى أعماق نفسينا، إلى المواطن الحميمة في كياننا. وهذا يعني أن لا أسرار بيننا بعد الآن.

وأَبتَسِم بيني وبين نفسي. وأعرف في قرارة ذاتي، أنّ بعض الأسرار ستبقى بيننا، وتبقى السرّ الذي يشدّ الجدار إلى الجدار ويبني الحجر فوق الحجر في

حياتنا معًا.

3

وكان الحَمل أَهَمَّ ما حدث لي بعد زواجنا بشهر واحد.

كِدتُ أنفجر بالسرّ، ولم أشأ البوح به إلى أحد من الناس. ولم يُدرِك نادر السرّ الكامن وراء ثوراتي وضيق خلقي... كان يرفع صوته غاضبًا، ويحاول أن يعيدني إلى الواقع.

والغدد تفعل فعلها في الخفاء، وتحوّل الإنسان إلى كيان آخر، وكأنَّه يرتدي جلدًا غير جلده...، وكلّ ما يبصر الآخرون من الخارج هو انفجار البركان، أو سكب الدموع.

وذات يوم ضاق ذرعًا أمام صمتي، وتقلّب مزاجي، فطرح سؤاله المباشر: – هل أنت حبلى؟

سؤاله صفع كبريائي.

استيقظت في نفسي أجيال الصمت والخجل.

وبَكيت.

لم يفهم دموعي.

لم يدرك أنّه وَجَّهَ إليّ إهانة كبرى بسؤاله.

كنت، في ذاتي الأخرى المتمرّدة، لا أزال عذراء، والحمل، بل الاعتراف بالحمل، هو الرضوخ للواقع المرفوض... بل هو الاعتراف بتقبّل الإهانة.

حبلى! طعنة في كبريائي...

وهي في الوقت ذاته، مدعاة للفخر في مجتمع لا يزال يعتبر الحَمل أهم مهمّات المرأة.

وحتى الآن لا أستطيع أن أفسّر سبب غضبي: أهو شعور غريزيّ لدى الأنثى، أم عدم اعتراف بالخضوع الكليّ للذكر؟... أم أنّها ترسّبات التقاليد، وما يُعلَّق على هذا الحدث من اهتمام؟...

الحَمل مرتبط بالعلاقة بالرجل. وهذه العلاقة محرّمة في المجتمع المحافظ.

وإذا حدثت، تكون النتيجة فضيحة، وكثيرًا ما تذهب المرأة ضحيتها.

هذا خارج شرعة الزواج.

ثمّ فجأة تنتقل الأنثى من المجتمع البدائي هذا إلى الحضارة الزوجيّة، وعليها أن ترمي ثيابها القديمة، خارج الأسوار، وتدخل عارية من كل الرواسب... وتتقبّل الحَمل هنا، على أنّه بَرَكَة ونعمة من اللّه.

وأنا، بكيت في ذلك النهار كما لم أبكِ من قبل.

بصمت وحرقة، بكيت، حتى ابتلّت الوسادة. وكنت أحسّ، في تلك اللحظات، بأنّ نادر، الرجل الحنون، المحبّ، القريب، بات غريبًا، قاسيًا، وهو شامت بي...، أجل شامت.

ولم أطلب منه أن يرافقني إلى عيادة الطبيب. ذهبت وحدي. ولمّا غادرت العيادة كنت أحمل التأكيد العلمي: – إنّي حبلى.

وراح كل شيء في حياتي يتبدّل... صرت امتدادًا شاسعًا لأرض بلا حدود... أرض كانت مهملة، ثمّ لحقها الغرس، وهي تتكمّش بالبذار وتلفُّه بخيوط العاطفة والحنان.

تلك البذرة العجيبة المختلجة في أحشائي بماذا ستأتيني؟

وفكّرت بمريم العذراء.

لماذا ذكرتها؟

ربّما لأستمدّ القوّة، وفكّرت أنّها خافت مثلي، وارتعدت أمام إعلان الحدث، ثمّ وضعت يدها على بطنها، وشعرت بأنّه لم يعد يخصّها، بل يخصّ الكون. وهو جيب من جيوب الكون، يحتوي أثمن الكنوز... يضمّ كنزًا سوف تحميه تسعة أشهر قبل أن تعطيه للعالم، وتقف في الخلفية، تراقبه يسير، يتقدّم، وينفصل عنها ذرّة، ذرّة.

خَطَرَت هذه الأفكار في بالي، وأنا واقفة هناك، على قارعة الطريق، أمام عيادة الطبيب، أرتعش، أتلفَّت حولي إلى الكون، وأرى أنّ كلّ شيء قد تغيّر... كان يخالجني شعور متناقض، فبينما أنا تائقة إلى أن أبوح بسرّي إلى المارّة، إلى الفَراش والنحل، والسيارات الصاخبة، كان شعور آخر يشدّني، إلى أن أَلتَفّ على ذاتي، وأحتفظ بسرّي خشية أن يهرب منّي ويضيع.

وَقَفتُ على قارعة الطريق، ضائعة، محتاجة إلى من يمسك بيدي، ويرشدني إلى منزلي.

وبرغم ذلك، كان فرح سرّيّ يختلج في أحشائي.

إنّ هذا الجسد، الذي لم أعِرهُ يومًا اهتمامي، يمارس قدرةً تفوق تصوّري... إنّه يدور حول ذاته، ويُوَلّد شيئًا جديدًا... إنسانًا جديدًا.

هذا الجسد!

صار امتدادًا شاسعًا لأرض بلا حدود.

4

في المساء اقترب نادر منّي، وراح يتلمّس يدي بحنان، من دون أن ينبس بكلمة...

وفهمت معنى صمته، يريدني أن أبادره بالجواب. وبصمت أجابته دموعي، وانتقل الفرح السرّيّ إليه. وصار يتحوّل أمام عينيّ، ويقترب إلى أبعد من حدود الجسد.

وصارت الحياة الجديدة تسير معنا، بجوارنا، وهي حياة فريدة تردفني بشتى المشاعر المثيرة.

وصار كلّ ما نقوله أو نفعله يدور حول هذا السرّ المغروس في أحشائي...

الفصل الثالث عشر

1

وحنان تزوّجت، ولم تعد إلى بيروت. وكنت أتلقّى أخبارها بواسطة أمّها. وبقيت تمارس هربها من أمّها، حتى في تلك المرحلة الناضجة.

كم طال اغترابها؟

لا أذكر الآن. أُسدِل ستارٌ بيننا، وبقيت هي محجوزة في قاعة الاغتراب المعتمة.

وأُكرّر سؤالي لأمِّها:

– متى تعود حنان إلى بيروت؟

فتردُّ عليّ الست «خولة» بحياديّة تامّة:

– اللّه أعلم يا بنتي. زوجها متعاقد للعمل مع شركة أميركيّة ولا أدري متى تنتهي مدّته، وهي مرتبطة به.

لم أجرؤ أن أتمادى في السؤال، لأعرف، هل هي سعيدة في تلك الـ«أميركا»؟ وهل تتابع كتابتها؟

وطال غياب اسمها عن الصحف والمجلّات في لبنان... وبدأ الناس ينسونها.

وبقيت حنان محجوزة في دنيا الاغتراب سبع سنوات طوال، ثمّ فجأة كانت تلك الزيارة.

2

كنت مكبّة على بعض الأوراق في مكتبي، أعدّ المقالة الأسبوعيّة، حين سمعتُ طرقًا خفيفًا على الباب، انفرجت دفّة الباب قبل أن يتسنّى لي أن أجيب الطارق، وأَطَلّ وجهها...

وبدأتُ أعود من رحلة بعيدة، وصارتِ الخيالات تنجلي عن عينيّ وتضيع.

بقيتُ مكاني، واليد الناعمة متشبثة بدفة الباب، وأنا أحاول أن أجمع نفسي حتى لا تنفجر، وتتناثر شظاياها أمام عيني حنان.

عرفتُها من بسمتها، وحركة جسمها، أمّا الوجه الذي ترتديه، الوجه القناع، فكان يخصّ امرأة أخرى.

قالت ذلك وهي تقترب منّي ببطء، ثمّ تابعَت:

– لا تخافي. إنّه وجهي الجديد سوف تعتادينه. الحمد للّه أنّ الجوهر بقي لم يُمَسّ.

فغرتُ فمي كالمخبولة، ونسيتُ أن أغلقه. ثمّ قفزتُ عن الكرسيّ وأخذتها بين ذراعيّ، غمرتُها وشددت، وعبقت رائحة عطرها في أنفي.

لا، لم تخسر جمالها كلّه، بقي لها القوام الرشيق والشعر المسترسل والبسمة العذبة ثمّ العينان، عيناها، بسوادهما الليلي وألقهما الجذّاب.

– الحمد للّه سَلِمَت عيناي! أليسَ هذا شيئًا هامًّا؟...

هي تحكي، وأنا شاردة، صامتة. وأخيرًا حُلَّت عقدة لساني فسألتها: – ماذا جرى يا حنان؟ اجلسي هنا، واحكي لي.

ولم تتردّد، أطاعت الأوامر... وبدأت بالسرد:

– حادث سيارة، لا تجزعي، ولا تُبدي الأسف... في حياتي كلّها لم أذق طعم السعادة، يا مها، أمّا الآن فأنا أسعد امرأة في الوجود. لقد مررت بأعجوبة، مِتُّ وقُمتُ من بين الأموات... وبين الحدثين تشوَّهَت بشرتي قليلًا. هذا لا يهمّ... لا... لا تُبدي الأسف... جرّاحو التجميل يصنعون العجائب، وقريبًا أخضع لسلسلة عمليّات تُعيد إليّ بعض ما فقدت.

هي تحكي وأنا صامتة. استقرّ الختم فوق شفتي.

وفكّرتُ: لم تفقد تفاؤلها. وهذا أمر هامّ.

وأعادني صوتها إلى الحاضر المفتوح بيننا:

– لا يقدِّر الإنسان نعمة العيش حتى يواجه الخطر الأكبر... ثمّ يظلّ يتذكّر، كلّ لحظة، ما جرى له، ويُجري مقارنة ويخرج منتصرًا.

تمنَّيتُ لو تختم الموضوع وتحدّثني عن أشياء أخرى... لكنّها لم تستكمل الشرح، كانت تريدني أن أَطَّلِع على أدقّ التفاصيل: – فريد كان السائق. لم يُصَب بأذى. والحمد للّه أنّ الأولاد لم يكونوا معنا...، عندي الآن ثلاثة منهم. صبيان أشقياء وأذكياء. وأنت؟

وقبل أن أجيبها استأنفتِ الحديث:

– لم أقدر أن أعود إلى الكتابة، حتى كتابة الرسائل، الحادث وقع في «سان فرنسيسكو» (وكان القديس غائبًا)...، تعلمين أنّ فريد عمل مدّة أستاذًا في الجامعة هناك...، طالت مدة غيابنا، أليس كذلك؟

قلت ساهمة:

– سبع سنين.

– أجل، سبع سنين عجاف بالنسبة إلى القلم، ولكنّها سمينة بالنسبة إلى الإنجاب... صديقتك امرأة خصبة.

وفرقعت ضحكتها وهي تسأل:

– وأنتِ؟ أين يتجه خصبك؟

لملمتُ نفسي، وأنا أنتقي كلماتي:

– لست مقصّرة، لقد سبقتني برحم واحد. عندي ولدان.

– لن تستطيعي اللحاق بي. فريد مصرّ على أن أحمل هذه المرّة على سبيل التجربة. تعرفين عقله العلميّ... وأنا اليوم في الشهر الرابع.

– مبروك سلفًا.

وضحكنا بعفويّة.

وعدنا مثل أيّام زمان.

وبيننا وقفت تلك السنون الطويلة، وصفّ من الأولاد، ورَجُلان، وقناع وجهها.

– لم تبصري وجهي فور وقوع الحادث. كان رأسي ملفوفًا بالشاش، مثل رأس القرنبيط. لم يكن يبدو منه سوى العينين.

وكانت أوّل ردّة فعل لديّ حين وقفت على رجليّ، أمام المرآة، أن أضحك... لكن القُطَب حول فمي كانت تؤلمني، واكتفيت بضحك تسرّب من عينيّ، ثمّ

رحت أجري معهما حوارًا أخرس.

كنتُ فَرِحَة بالعودة إلى الحياة، على رغم كلّ ما جرى... فرحة بأنّي لم أفقد الوعي أو الذاكرة... لقد كان الخَطر واردًا، وتصوّري نتيجة ذلك!

3

حنان تحكي.

هي دائمًا تحكي، وأنا أصغي إليها.

انتظرتُ حتى صَمَتَت وسألتها:

– وفريد، كيف كانت ردّة فعله؟

– كان طبيعيًّا... فرح بخلاصي، وعودتي إلى البيت والأولاد... لكن الأيّام التي تلت قالت عنه أشياء أخرى... لن أذكرها الآن... أريد أن أسمع أخبارك أنت.

– إنّي منهمكة في أمور كثيرة كما تَرَين. الأولاد يستهلكون معظم ساعات يومي، وما تبقّى أنفقه في العمل الصحافيّ. وأنت، ماذا جرى لقلمك؟

– توقّفت عن الكتابة منذ زمن. وأغلب الظنّ أن سوف تبقى روايتي وحيدة، لا إخوان لها ولا أخوات.

– هذا الأمر لا تقرّرينه أنت، بل يتكشّف في مسار حياتك. عندك الآن كومة تجارب تنهش صدرك فلماذا لا تخرجينها؟...

– الغربة أَكلَت موهبتي، ولم تُبقِ لي النسْغَ الضروريّ للعمل الإبداعيّ. جَفَّتِ القريحة، مثلما جفَّ القلب.

– ليس قلب حنان... لن أصدّق ذلك...

– شكرًا لحسن ظَنّك...

اختصرتِ الجواب وصمتَت. ولمحتُ في عينيها طلائع دموع ابتلعتها، ثمّ قفزَت إلى الشرفة، وجاءني صوتها من الخارج: – يا له من مشهد رائع! بماذا يوحي إليك؟ يجب أن تكتبي أشياء رائعة من وحي شرفتك هذه. أنت تُطلّين على كل بيروت وبحرها الأزرق.

تبعتُها إلى الشرفة وتابعتُ الحوار:

– حين أأكتب أُدير ظهري لكل منظر خارجيّ.

– وتكتفين بما ينبع من صميم ذاتك، من الينبوع الغنيّ هناك.

ثمّ استدارت حنان لتواجهني وبدّلت حديثها:
– لم تخبريني عن نادر، كيف حاله؟
– بخير. لقد ترك الوظيفة وبدأ يؤسس شركة مستقلة.
– الرجل الطموح!...
– وفريد، ماذا يفعل الآن؟
– فريد ضاق برتابة التدريس، فاستقال من الجامعة، وعدنا إلى لبنان، وهو بصدد إنشاء شركة هندسيّة. هذا عالمه. لا أتدخَّل كثيرًا في شؤونه.
– وهل كنتما سعيدين خلال السنوات الأميركية؟
– هو كان ناجحًا، وراضيًا عن نفسه.
– دائمًا تتحدثين عنه، يا حنان، وتنكرين نفسك... أريد أن أطمئنّ على سعادتك، وأن أتعرّف إلى الشاب الذي بدّل حياتك، وقلب مفاهيمك، خصوصًا ما يتعلق منها بالزواج.
– هذا الموضوع لا يخضع للمنطق... كان زواجًا سريعًا، مرّ بمكتبي لشراء بطاقة سفر، فإذا بها تتحوّل إلى بطاقتين... قادني إلى رفقته كالساحر. وكنت مستسلمة، قانعة به، ونسيت مواقفي الرافضة. ماذا تُسَمِّين ذلك؟ حظّ؟ نصيب؟ أم أنّ الغربة تُبَدِّل ما في نفوسنا، فلا تعود الأشياء كما عهدناها في السابق؟... في عمّان شعرتُ بالوحدة حتى الأعماق... إنّما كانت تلك وحدتي المنقذة من السيطرة الأموميّة. وكان عليّ أن أختار بين البقاء في الوحدة، أو العودة إلى حكم السلطان، فمرّ فريد وحسم الأمر.
– أهذا كلّ شيء؟
– لا يا مها. هو شاب ذكيّ، وسيم الشكل، وقويّ الشخصيّة.
– مبروك، أقولها متأخّرة سنوات لأنّك لم تتيحي لي فرصة قولها في حينه.
– لا تحاسبيني على الماضي، يا مها.
ومرَّت بيننا فترة صمت أضافت بعدها حنان:
– المهم أنّه زوج قويّ، أستطيع أن أستند إلى ساعده في ساعات الضعف، وهذا ما لم أختبره في تجربتي السابقة.
– أخشى أن يكون طغيان شخصيّته ما جعلك تُخرسين القلم.

– لا، إنّها الحياة الزوجيّة عامّة. المنزل والأولاد يستهلكون الأمّ ووقتها، وطاقاتها...، ولهذا كان عدد البارزات من النساء، قليلًا جدًّا، عبر العصور. وفي أميركا، عرفتُ العبوديّة الحديثة. المرأة هناك، حاصلة على حقوقها كلّها، وليس لديها الوقت لممارسة تلك الحقوق...

– تقصدين القول: ليست لديها الحماسة أو الإرادة.

– لا... الوقت، إنّها عبدة البيت ومطالبه الكثيرة... وهي تشارك في العمل، ولكنّها تظلّ شخصًا ثانويًّا... ولهذا السبب بدأ التململ الذي تقرئين عنه.

– بل بدأت ثورة نسائيّة...

– المرأة، يا مها، كانت وستظلّ، في حياتها، حائرة ومحيّرة مَن حولها. وحين أقول المرأة أفكّر في أجناس كثيرة من النساء... لا تفكّري أنّ كلّ امرأة تحمل قضايا التحرّر، وتسير. هنَّ قانعات بالقليل القليل، والفئة الرافضة الثائرة لا تزال الأقليّة.

– لكنّ هذه الفئة هي القائدة. هي حاملة مشعل الريادة، في أميركا، في الصين، كما في لبنان.

– أجل! ولكن سيمرّ وقت طويل قبل أن تخلع المرأة، خصوصًا في بلادنا، رداءها التقليديّ. وقد لا تخلعه، وإذا شعرت بتمزّقه تضيف إليه رقعًا جديدة.

– هذا صحيح، مع الأسف. خذي صاحبتك... إنّي أكتب منذ عشر سنوات، في هذه المجلّة، وأتوجّه إلى المرأة. أريد أن أهزَّها، وقلَّما أحظى بردَّةِ فعل... حتى بتُّ أعتقد أنّ المرأة، في أيّ وضع كانت، لا تبحث عن التغيير... وعلاقتها مع الآخرين مبنيّة على الخوف والرهبة، ثمّ على الرضى والقناعة بما تيسّر لها، حتى ولو كان ذلك المتيسّر زوجًا حقيرًا، ظالمًا، يجلدها بالسوط، أو باللسان.

وأعجبَ حنان اندفاعي المفاجئ، فقالت معلّقة:

– لا تلوميني إذا توقفت عن الكتابة... لم أعد أؤمن بأنّ الكلمات تستطيع أن تغيّر الواقع. وكلّ ما نفعله هو أنّنا نحاول أن نضع بعض النور في دروب مسيرتنا...

– ولكنّك توقفت حتى عن ذلك وأطفأت أنوارك!... بل ربّما احتكرها شخص واحد، اسمه فريد.

وضحكت حنان، من أعماق القلب، فاغتنمتُ الفرصة لأطرح سؤالي: – هل أنت سعيدة في زواجك يا حنان؟

– ماذا تقصدين بالسعادة؟ كيف تحدّدينها يا مها؟ كلّ يوم يمرّ، يحمل إليّ لونًا جديدًا من المشاعر، كانت ذروتها خروجي من تلك التجربة الرهيبة، وفي صدري أنفاس تختلج... والآن، أنتظر بفارغ الصبر موعد العملية الجراحيّة الأولى... أنا راضية عن علاقتي بفريد، وإن كانت له اليد الفوقيّة، والقرارات الأهمّ في حياتنا... ثمّ الأولاد، إنهم أزهار حديقتي، وأمل غدي.

4

وهبَّت حنان، مودِّعة، فرافقتها إلى الباب. ولمّا عدتُ إلى متابعة عملي، لم أقدر... كانت هناك أفكار كثيرة متضاربة، وظلَّت عباراتها الأخيرة تطنّ في أذني.

هل أجابت عن سؤالي؟ أم تركتني لأنبش الجواب من بين ركام الكلمات، وأبحث بنفسي عن معنى السعادة؟

وما هي السعادة؟

نتف من نشارة الحياة، تعلق بأشواك الطريق، ونحن نجمعها، كما يجمع العصفور عناصر عشه.

السعادة، ذلك الشعور الذي نتوق أبدًا إلى بلوغه، إنّها الحلم، وفي كل لحظة نسعى إلى تحقيقه، وقد نصرف العمر كلّه في السعي.

وهي، الآن، بالنسبة إلى صديقتي، محاولات جرّاح ماهر، يعيضها من بعض ما فقدَت من بشرتها المخمليّة.

الفصل الرابع عشر

1

طالت وقفة حنان أمام النافذة. كانت تسرّح نظرها في ما انتشر على شاطئ البحر من تخشيبات حوّلها صغار التجار إلى مخازن لبضائعهم... ولمّا عادت إليّ سمعتها تتمتم، وكأنّها تحدِّث نفسها: – من يصدّق أنّ الحرب مَرَّت من هنا؟ إنسان بلدنا يرفض الخضوع لأيّ إذلال.

قلت لها:

– ولكنّ الحرب مَرَّت من هنا، يا حنان، مَرَّت مثل حجر الرحى فوق ظهر كلّ حيّ.

– أعرف... أعرف ما تقصدين. كنّا نسمع كلّ يوم أخبار التراشق بالقنابل والصواريخ.

– أجل، يا عزيزتي، الصواريخ... اسألي أيّ طفل من أطفالنا، يعدِّد لك أصناف القنابل والصواريخ. هواية الأطفال صارت ملاحقة الانفجارات وجَمع الشظايا، والرصاص الفارغ. بعض الفنانين حوّلوا الشظايا إلى تماثيل. وهذا المدى المنبسط أمام عينيك، هادئًا وحياديًّا، كان مركزًا لمدفع «غْراد». انظري تلال التراب والرمال، إنّها من مخلّفات القصف. كانت قذائف هذا المدفع تنطلق أمام أعيننا فتزلزل أركان الحيّ، ونشعر بأنّ المنازل تتهدّم فوق رؤوسنا... وبالطبع، كانوا يردّون «التحيّات» من الجانب الآخر، وتسقط الويلات فوق رؤوسنا.

– ولكن أين آثار تلك القذائف؟...

– هذا ما نتساءل عنه نحن أيضًا... نعم، أصيبت بعض البنايات، وتفجَّرَت القذائف في الطرقات، لكنّ الأعجوبة الكبرى هي أنّ معظم القذائف كان يحيد عن الأهداف، وأحيانًا قيد شعرة، فتُنقذ حياة مئات المواطنين... اسألي كلّ إنسان، في هذا الحيّ أو سواه، يروي لك أخبارًا كثيرة عن نجاته بأعجوبة... كلّ إنسان تعرّض للخطر... ونحن الآن أحياء بالمصادفة، وحتى أجل آخر.

– طبعًا، من حسن الحظ أنّكم تعيشون في هذا الحيّ البعيد عن خطوط النار.

– وإلّا لأصاب منازلنا، ما أصاب أسواق بيروت، والمناطق الأخرى، من حدود «حيّ الفنادق»، إلى «حيّ السلّم».

– هذه أوّل مرّة أسمع باسم هذا الحيّ.

– سمعنا أسماء كثيرة جديدة. هذه الأحياء نبتت حول العاصمة، مثلما ينبت الفطر، ومع الأيّام أصبح سكّانها أولاد المدينة المحرومين.

– والأولاد، ماذا كانوا يفعلون؟ أولادكم أنتم أعني.

– حاولنا جهدنا لنحميهم. ولكن إلى حدّ. لهم عيون وآذان، وإحساسات لاقطة... وبالطبع كان عليهم أن يعيشوا الرعب معنا... الآن، لا نستطيع أن نجزم بما سيكون أثر الحرب على الأجيال الطالعة. ذلك يظهر في المستقبل... لكن أقول لك شيئًا أكيدًا، إنّ للحرب بعض الإيجابيّات، علّمت أولادنا تقدير النعمة، والعيش المتقشّف، على ضوء الشموع، لا ماء ولا كهرباء، وأحيانًا، خبز شعير...، أمّا الرعب فكان يرفع خيامه فوق رؤوسهم، ويدفعهم، متى غابت الشمس، إلى الملاجئ، إلى الاحتماء في الزوايا القصيّة...، وفي ليلة انفجرت ابنتي الصغرى، ابنة السنوات السبع، كنت أفرش لها في الممشى الضيّق، فسمعتها تردّد: «ماما، ضعي رأسي في مكان لا تصله الشظيّة»...

أولادنا تعلّموا دروسًا قاسية، يا حنان، سوف تبقى معهم مدى العمر.

– وهذا ما وفّرناه على أولادنا حين حملناهم إلى الخارج، ولكن...

ولم تكمل حنان عبارتها، ارتمت من جديد في أعماق الصمت، هذا الصمت الذي يستولي عليها كلّما تذكّرت تمزّقها بين عالمين...

وفي جوِّ الصمت والظلمة راحت تلك البذرة تنمو بهدوء.

كانت السنة الدراسيّة في بدئها، ولم أشأ أن أغادر الجامعة قبل أن أحصل على الشهادة، إذ كانت تلك سنتي الجامعيّة الأخيرة.

وشوارع بيروت تغلي من حولنا، تُنذر بانفجار كبير... وكان التفجّر الذي حدث في ربيع سنة 1958 امتدادًا للغليان في جسم العالم العربي...

بدأ تصعيد الأحداث تدريجيًّا، وكانت الجامعة تضجّ بما يجري خارج أسوارها، والطلّاب في فورات حماسيّة، خرجوا إلى الشوارع، في تظاهرات صاخبة، كان الربيع حارًّا، وكنت في الشهر السابع من الحمل. لكنّ ذلك لم يمنعني من المسير في طليعة المتظاهرين...

وفي ذلك الصباح، لمحت بريقًا خاصًّا في عيني أستاذ الأدب الإنكليزيّ. كان ينظر إلى ما يجري نظرة تحمل العجرفة والاستعلاء. قال وهو يضع أوراقه على الطاولة استعدادًا لإلقاء المحاضرة: – منذ خمس عشرة سنة، وأنا أشهد ارتفاع الحرارة في مثل هذا الوقت، إنّه مناخكم الربيعيّ.

لم نعلّق على كلامه. كان كلّ واحد منّا يشعر بأنّ ما يجري خارج عن دائرة اختصاص الأستاذ، وخارج عن موافقته كذلك.

أمّا بالنسبة إلينا، فقد كانت تلك الحرارة تحمل تموّجات الرفض لكلّ ما يُدَبَّر في الخارج، بعيدًا عن إرادتنا.

وضاعت محاضرة الأدب الإنكليزيّ في ذلك الصباح. كان انتباهنا مشدودًا إلى خارج القاعة، حيث أخذ الطلّاب يتجمّعون استعدادًا للمسيرة. وما كادت الساعة تدقّ معلنة انتهاء المحاضرة، حتى قفزنا إلى الخارج، ونحن أشدّ ما نكون حماسة. وشعرت بأنّ بطني المنتفخ يعيق خطواتي... كذلك شعرت بأنّ الجنين المختلج في أحشائي يطالبني بهذه الوقفة، كي أُمهِّد له طريق الغد، الغد الأفضل.

وتلاشى الثقل، فرافقت المسيرة من بوابة الجامعة الأميركيّة إلى درج كنيسة الآباء الكبوشيين، في باب إدريس.

هناك، جلست على الدرج متعبة، وقد بدأت وخزات الألم في ظهري وبطني، بعد مسيرة ساعة ونصف الساعة، تخلّلتها الهتافات الحماسيّة...

خشيت أن يحدث ما لم أتحسّبه وتحين ولادتي قبل أجلها... لذا شيّعت الرفاق، وانتظرت وصول أوّل سيارة تاكسي تقلّني إلى منزلي، ومن ثمّ إلى السرير.

وفي المساء لم أجرؤ على أن أطلع نادر على حقيقة ما فعلت. وظنّ أنّ تعبي ناتج عن إرهاق من العمل في المكتب، والجامعة.

كانت مسيرتنا، في ذلك النيسان الحارّ، إحدى بوادر التململ الذي ما لبث أن انفجر في ثورة عارمة.

كان أمامي عملان هامّان حين اشتعلت نيران اللهب في شوارع بيروت: عليّ أن أضع المولود المنتظر، وأجري امتحان نهاية السنة الدراسيّة، ومن ثمّ أحصل على الشهادة.

– الامتحان يؤجّل...

هذا ما قاله الطبيب، وهو يهنئني بالسلامة، ثمّ تابع وهو يشير إلى الطفل الجميل فوق صدري: – أمّا هذا، فله دائمًا الأفضليّة. إنّه طفل رائع... يستحقّ ما عانيتِ من عذاب وألم.

غمرتُ الكيان الصغير بين ذراعيّ، وأنا أفكّر: أيّ ألم؟

نسيت الألم والعذاب، حالما أبصرت صورة وجهه.

رفعتُ نظري لأقول ذلك للطبيب، لكنّه تبخَّر من الغرفة، وتركني مع حبيبي الصغير. عدت أتملّى من وجهه، أُحدّق إلى عينيه المغمضتين، وفمه الشره، وأقول لنفسي: هذا هو إذًا؟ هذا هو السرّ الغامض الذي بقي تسعة أشهر مجاورًا لقلبي، ومستحيلًا على فهمي!... هذا هو، يفتح فمه مثل زغلول ويبحث بحثًا غريزيًّا عن حلمة الثدي.

وتقاطع الممرضة خلوتنا:

– إنّه مولودك الأوّل. اسمحي لي بأن أعلّمك كيف ترضعينه.

ابتسمت، من دون أن أعلّق على كلامها... الفم الجائع يعرف طريقه جيّدًا... إنّه يتبع الخط المغناطيسيّ، ويتكمّش بالدائرة الورديّة ويرضع بنهم.

وتضحك الممرّضة ضحكة الرضى والقناعة:

– باستطاعته أن يعلّمني ويعلّمك! يا سبحان اللّه!

سمعتها تسكب تعليقاتها، وتقذف عبارات الإعجاب. وبقيتُ منحنية بصمت وخشوع، أتأمّل الوجه الصغير، والعينين الغافيتين، والفم المجتهد... ثمّ فجأة انهمرت الدموع، وراحت تتساقط على الثدي المنتفخ، ووصل رذاذ منها إلى الخدّ الطريّ.

– تبكين؟ لماذا؟

الممرّضة لا تزال في الغرفة... تقلقها دموعي. ماذا أقول لها؟ كيف أشرح ما ينتابني من أحاسيس؟ تمنّيت لو تخرج، وتتركني مع هذه الأعجوبة، التي كان لي شرف المشاركة في خلقها...

لقد صرتُ أُمًّا.

3

– مبروك؟

قالها نادر وهو ينحني، يقبّلني بفخر:

– أنتِ الآن أمّ...

رفعت إليه عينين غير مصدّقتين، ولمحت حنانًا طاغيًا يتدفّق من عينيه، وبسمته، وقلت: – وأنتَ أصبحت أبًا.

– جعلتِني أبًا... هذا أصحّ.

- وأنا عليّ أن أتعوّد الأمومة.

إنّه شيء جديد، وغريب، أن أحتوي هذا الكيان الحيّ، بين ذراعيّ، وأفكّر في أنّه انفصل عنّي في لحظة رضى ومحبّة.

- هذا هو الطفل، طفلنا يا نادر، لقد تمّت الأعجوبة.

احتضن يديّ بكلتا يديه، وراح يصب فيهما كل ما شاء أن يقوله، من دون كلمات.

وشعرت بأنّ رابطة المحبّة بيننا أصبحت أمتن، وأقوى.

الطفل الجديد سرٌّ يقوّي وحدتنا...، هو «الأنا» في كلّ واحد منّا، مختصرة بكيان واحد.

الفصل الخامس عشر

1

صحيح أنّ الجراحة العصريّة تصنع العجائب، وأكبر دليل على ذلك وجه حنان. هذا الوجه الخارج من ليلة بيضاء، يواجهني بكلّ الأسئلة النائمة والمؤجّلة... ويواجه صباحًا جديدًا من صباحات بيروت بعد الحرب.

كم هو كبير الفرق بين وجهها اليوم وذاك الذي أطلّ عليّ في مكتبي قبل عشر سنين!

حين أغوص إلى أعماقي، وأتساءل بإخلاص عمّا إذا حصل تبدّل في مشاعري، أكتشف أنّ صداقتي لحنان ليست علاقة سطحيّة، بل هي مرتبطة بالجذور العميقة. وهي تنبع من الداخل، من بئر خفيّة في الداخل. وتعلم هي ذلك، وتعترف أمامي:

– تعلمين، يا مها، لو سافرت إلى أقاصي الكون، أعود دائمًا إليك، ونلتقي، وكأنّنا لم نفترق. بل إنّ حضورك معي دائم أبدًا.

أحيانا، كنت أخاطبك، هناك، في غربتي القسريّة، في لندن، وكنت أحسّك تسمعين، حين لم يكن حولي أذنٌ واحدة تصغي إليّ... وحين كانت الآذان موصدة مثل أبواب تلك المدينة... أجل، في لندن لا تعرفين كيف تجدين أبواب المنازل... إنّها مغلقة مثل عيون الناس.

قاطعتها لأقول لها:

– ولكنّها تعود فتنفتح، أعني الأبواب... أليس كذلك، يا حنان؟

– ربّما، لكنّ المهمّ ليس انفتاح الأبواب، بل ما يهمّ هو أن نعرف إلى أين تقودنا... وهذه الحرب، إلى أين تقودنا، هل تعلمين؟

قلت مداعبة:

– أنت معروفٌ إلى أين قادتك، إلى دنيا الحضارة. بقي علينا نحن أن نطرح مثل هذا السؤال!...

– يا مها، كلامك يصفعني. إنّك تَمسَحين وجودي نهائيًّا، وأنا ما جئت إلّا لأغرف حفنة أمل، أعود بها، وأقنع فريد كي يسمح لي بالرجوع إلى لبنان.

– فريد؟ وهل يوافق بهذه السهولة؟ وأعماله في الخارج كما تقولين... ثمّ إنّنا لم نستقرّ، كما ترين.

لجأت حنان إلى الصمت.

لكنّ الكلمات لا بدّ من أن تعود، ويعود يرتسم بيننا ذلك الحوار الدائم.

2

أمّا كلماتها الحقيقيّة، تلك التي تعبّر عمّا يختلج في أعماقها، وتنسكب فوق الورق قصصًا رائعة، كلماتها تلك انقطعت منذ أمد...

حاولت أن أعيدها إلى الجوّ، أكثر من مرّة، وذات يوم، ذهبتُ لزيارتها، وفي بالي هدف واحد: أن أهزّها، وأُعيدها إلى ذاتها.

وكانت الزيارة لمناسبة ولادة طفلها الرابع.

– عُودي إلى الكتابة يا حنان، هي وسيلتك الفضلى، لتعبّري عمّا يختلج في أعماقك، وتضعي تجاربك إشاراتٍ لجيل أولادك.

ضحكت كثيرًا، وكأنّي رويت لها أغرب الفكاهات. وظلَّت مصرّة على الرفض.

وكان وجهها يشعُّ بألق حيّ، عنوان الأمومة، والرضى بالخلق:

– إنّه مؤلّفي الجديد... أَلا يعجبك؟

قالت ذلك، ووضعت الطفل بين ذراعيّ. ولم أستطع أن أقول كلمة.

أخرستني ببلاغة.

كان الكنز الرابض في حضني، أغلى من كتب الأرض كلّها، وأعظم إبداع عرفه فنّان... وكان يرنو إليّ بعينين نصف مغمضتين، تريدان أن تدخلا الحوار،

وتحول دون إرادتهما شرنقة الطفولة.

أعدت إليها الطفل، وأنا أبدي إعجابي بجماله، بوعيه، ووعوده المنتظرة.

وكان من الطبيعيّ أن أسألها عن ردَّة فعل فريد، إزاء هذه الأعجوبة النادرة. ابتسمت صديقتي، ولم تقل شيئًا. وانتَظَرتُ. كنت أعلم أنّ فتح هذا الباب يريحها. فولجَت إلى قلب الموضوع:

– فريد لم يعد يكترث للأطفال. ليس لديه الوقت... تعلمين، عمله، وشبكة تنقُّلاته من بلد إلى آخر.

– ولكنّه شاء هذا الحَمل تجربةً لمقدرتك، أليس كذلك؟

– هكذا كان الأمر في البدء، ثمّ تحوّل مع مرور الأيّام. ولا أخفي عليك أنّي عانيت الكثير من الألم خلال الأشهر الأخيرة من الحَمل.

– ألم الجسد...

– بل الألم النفسيّ، وهذا ما جعل الولادة عسيرة... كنت أعيش في خوف دائم.

– خوف؟ من ماذا؟

– من أن يولد الطفل مشوّهًا... يكفي أن يكون في العائلة شخص واحد مشوّه.

فاجأني كلامها، وارتبكتُ. وتمنَّيتُ لو لم أحفر في أعماقها، ثمّ نهضت وأنا أشجّعها:

– أنت علّمتني التفاؤل. والجراحة تزيل كل أثر لذلك الحادث. ما بك يا حنان؟...

وتاهت عيناها عبر النافذة ثمّ انهمرت دموعها، غزيرة كمطر الربيع:

– إنّه فريد، يا مها. لقد تغيَّر كثيرًا.

– وأنت تغيَّرتِ. إنّك خارجة من تجربة عطاء قاسية، اسمحي لنفسك ببعض الوقت، ولا تنظري إلى الكون من خلال هذه الغمامة العابرة.

– أعطيتُ نفسي وقتًا كافيًا لأتأمّل وأناقش، وأقنع بما حدث. لكنّ نظراته إليّ تبدّلت، كما تبدّل تصرّفه معي، ثمّ هربه الدائم. اختار عملًا، يبقيه خارج بيروت طوال الوقت، وإذا زارنا، فلمدة ساعات، يهرب بعدها إلى الخارج.

– وعالم الرجل يبقى في الخارج، ألا ترين ذلك؟ ويبقى للمرأة عالمُها الثنائيُّ الداخليَّة: داخل المنزل وداخل الذات.

– لكنّ بدء التحوّل عند فريد يعود إلى عام 1967، بعد ذلك التاريخ لم يعد يطيق عمله في الجامعة، أو يسمع شماتة الأغراب بما حصل للعرب. حاولنا الصمود في الفترة الأولى، لكنّ السخرية تحوّلت ضدّنا، كان علينا إمّا أن نرحل، أو نقبل بإحناء الرأس والخضوع. واخترنا الحلّ الأوّل.

– وخيرًا فعلتم.

– لكنّ هذه التجربة كانت خارجيّة وكان باستطاعة فريد أن يتحمّلها لو لم يقع ذلك الحادث...

– ولكنّك خرجتِ سالمة، يجب أن يكون راضيًا.

– لم أوجِّه إليه كلمة لوم، ورغم ذلك أحسُّ بأنّ قِدرًا يغلي ويفور في داخله، ويكاد لهبه يتدفق ويحرقني كلّما حطّت عيناه على وجهي. إنّه يشعر بتأنيب الضمير، وللخلاص من هذا الشعور اتّخذ الاتّجاه المعاكس، وراح يصبّ نقمته عليّ... يا مها، لن نخرج من هذه الحالة، ما دام لي وجه ينظر إليه... هل تدركين ذلك؟ حتى العمليّة الجراحيّة لن تنقذني. إنّي أهذي، وأحكي، وأحلم بالتفاؤل، لكنّ إناءً ثمينًا كان يجمع بيننا، انهار وتحطّم.

– وبقي الجوهر. فكّري في ذلك، يا حنان، أنت امرأة عاقلة.

– وفريد رجل ذكيّ. لكنّ تصرّفه معي في غاية الغرابة.

– وأنا أعجب لسماع هذا الكلام منك، وأنت خارجة من ولادة عظيمة، وأعطيته ثمرة جديدة من ثمار الحبّ.

– بل ثمرة لإحدى التجارب العلميّة. إنّه لم يكترث. لم يعد من رحلته ليكون قربي. اكتفى بإرسال برقيّة، مثل أيّ إنسان حياديّ.

حاولتُ أن أجد له العذر فقلت:

– ربّما اضطرّه عمله إلى الغياب. وأنت في هذه الحالة النفسيّة، تشغلين خيالك، وتحمّلين ذاتك حملًا ثقيلًا. انتظري ريثما يرتفع قناع التشاؤم عن وجهك.

– قناع الواقع، تقصدين!... ولماذا أرفع القناع؟... لأرتدي قناعًا جديدًا يخفيني خلف ضباب الوهم والأحلام؟ يا مها، علينا أن نواجه واقعنا مهما كان قاسيًا. وأنا أواجهه في كل لحظة...

– ولهذا أقول لك: عودي إلى الكتابة، إنّها سلاح قويّ في يدك.

– هذا ما يستحيل عليّ أن أفعله. إنّني أغرف من صميم ذاتي، لأكتب. وهذه الذات صارت بئرًا مرصودة لم تعد تخصّني.

– هل حاولتِ مؤخّرًا؟ القلم يجفّ ويأكله الصدأ، مثل السلاح تمامًا، ولكن حين تعودين إلى استخدامه تكتشفين أنّه يلبّي.

– وقلمي تحطّم وانتهى.

شَعَرتُ بأنّ الكلام مع حنان لم يعد يفيد. كانت مستسلمة إلى موجة من موجات التشاؤم رافقتها بعد الولادة، ولم تفارقها إلّا عندما نجحت عملية وجهها، على دفعتين، وعاد النور ينعكس من ثنايا الوجنتين.

ولكن، هل استطاع التحوّل الجديد أن يرجع فريد إليها؟...

3

وجهها لا يزال يحمل بصمات خفيّة لذلك الحادث المشؤوم، تكاد تكون كلمات كتبتها أنامل الزمن.

والذي عرف وجه حنان، في الماضي، يحسّ بأنّ ظلال الحفر باقية، وفريد يشعر بذلك، ولن يفارقه هذا الشعور ما دام هناك رابط يشدّهما.

الإناء الجميل تحطّم،

العلاقة تبدّلت.

الإنسان يتغيّر.

والأيّام ترقص بين أصابعنا، ولا نشعر بها، وإذا نحن دمى تتأرجح فوق أصابع الأيّام.

هكذا هي الحياة! موجة تلو موجة.

وحملَتها موجة الصيف لتزورني ذات يوم، في منزلنا الصيفيّ، في «بحمدون».

كانت تجرّ أولادها، وفريد مسافر، مثل عادته... فريد من زمان لم يعد يرافقها. تعوّدنا أن نراها وحيدة، في الحفلات والسهرات، أو برفقة أولادها حين تزور الصديقات.

والقلم هجرَتهُ نهائيًّا:

– قلتُ ما كنت بحاجة إلى قوله. ذلك يكفي. وربّما جاء يوم أحسُّ فيه بالحاجة إلى الكتابة، فأعود وأكتب.

وأعود فأهزّها من جديد:

– عندك خدم يقومون بأعمال المنزل، وتربية الأولاد، وسائق يوفّر عليك عناء القيادة، وعندك فراغ رحيله الدائم، اكتبي.

ارتدَّت كلماتي إليّ:

– هذا الأمر خارج عن إرادتي. لقد نضب ينبوع الوحي... هل يقنعك هذا الجواب؟ كفّي عن ملاحقتي يا مها، وانسي أنّي حاولت مرّة أن أتسلّق ذلك الجدار.

– ولكنّ الناس لا ينسون. وسوف يحاسبونك دائمًا. والصحف تذكر اسمك باستمرار، وتطالبك بالعودة.

– هذا الأمر لا يعني الناس. أُفَضِّل الصمت أَلف مرّة على الغوص في التفاهات. وأنا اليوم أعيش حياة تافهة لا تستحقّ أن تُسجَّل.

– الكاتب يجد مادّته في كلّ شيء، حتى في الأمور التافهة. عن تفاهة هذه الحياة اكتبي، لأنّك بذلك تعبّرين عن آلاف النساء الصامتات.

ومن جديد، انتزعها منّي الصمت، فانتفضَت واقفة، ثمّ خرجَت إلى الحديقة، حيث كان الأولاد يلعبون، ويملأون الجوّ بصراخهم.

وقفَت هي تتأمّلهم، وانصرفتُ أنا إلى المطبخ، لأعدّ فنجان قهوة. وقرّرتُ ألّا أُعيد الكرَّة، وأكفّ عن ملاحقتها. إنّ أَلمها كبير يكاد يصرعها، وهي تهرب منه إلى الصداقات... وصداقتنا فشلت، من جديد، في أن تكون المنقذ.

4

تَصَوّرتُ حنان، في وضعها المأساويّ ذاك، أشبه بإنسان قذفته رفسةٌ قويّة عن سطح بناء شاهق، فسقط، وخلال سقوطه راح يتعلّق بحبال الهواء، وكلّما أمسك حبلًا تراخى بين يديه، فانتقل إلى التكمّش بحبل جديد.

كيف، وإلى متى يستطيع المرء أن يبقى عالقًا بحبال الهواء؟

ومتى يكون السقوط النهائيّ؟

هربَت صديقتي من زواجها الأوّل، ثمّ من أمّها، ومن وطنها، وها هي تمارس الهرب من وجهها، وتتكوّم على نفسها، وتنطوي على ذاتها، تئنّ، ويضيع صدى أنينها في أعماق البئر...

5

جلسنا نشرب القهوة في ظل سنديانة تفرش أفياءها كالنعمة في قلب الحديقة. وكانت شمس الصيف قد حَمِيَت، وراحت تلهث أنفاسها في الأجواء حولنا. وظلّت دائرة الشجرة الدهريّة، مظلّةً تقينا لفح الهجير.

لمحتُ فوق وجهها لونًا مشرقًا هو انعكاس للصفاء الطبيعيّ مجلِّل المكان. خالجني شعور بالفرح... وفكّرتُ: لو نظرَت إلى وجهها الآن، لزالت الغمامة من عينيها!

لكنّ الإنسان الذي يهمّها، لم يعد يتأمّل هذا الوجه، وهي حطّمت المرآة في حقيبتها اليدويّة...

كانت تمارس هربًا دائمًا من الحقيقة. وراحت تُكَثِّفُ القناع فوق ذلك الوجه، فتذرّ الكحل حول العينين، وتقلب رموشها، وتزجّج حاجبيها، وكأنها تحاول لفت الأنظار إلى تلك المنطقة من وجهها. وبقيت عيناها، منارتين متألّقتين وسط الظلمة الدامسة.

كنت أتمنّى لها الخروج من تلك الظلمة، لتعود إلى ما كانت عليه في الماضي، ولكن!...

تركتها في الحديقة وعدت إلى داخل المنزل، رحت أتأمّلها من خلف الزجاج، وأولادها حولها. بدت لعينيّ أشبه بكيان أثيريّ هبط أرضنا في تلك اللحظة، حاملًا معه غرابة دنياه.

ولمّا عدتُ إليها، كانت تغمر «رجاء»، أصغر أولادها، وتتمتم:

– ما ذنبه؟ لماذا جنينا عليه، وجئنا به إلى هذا العالم؟ ليستفيد من التجارب الإنسانيّة القاسية؟

قلت لها بهدوء:

– أنت ما جئت به إلى هذا العالم، ولا أبوه، كان عليه هو أن يأتي، وعنده رسالة يؤدّيها. إذا كنتِ حتّى الآن لم تستلمي الرسالة، فلا تظنّي أنّها ضاعت...

قليلًا من الصبر يا حنان. الصبر والتأمّل.
هذا الصغير جاء ليقول لك كلامًا يختلف عمّا قاله الآخرون.

الفصل السادس عشر

1

الراحة من أين تنبع؟

وهل يعرف الإنسان طعمها ما دام فيه نَفَسٌ حيّ؟

الإنسان، هذا المجاهد أبدًا فوق الدروب الصعبة، يحاول أن يسير صُعُدًا، ويسير بين الأشواك، ويخلق المشاكل ثمّ يمضي يتفنّن في إبداع الحلول.

باختصار، إنّه يتسلّى بالتعب. هذا الإنسان، هل يعرف الراحة يومًا؟

تبقى هناك أوقات قصيرة، بين الخطوة والخطوة، محطّات وقف، ثمّ يتابع القطار مسيره.

2

وخطوتُ مع نادر، منذ لحظة لقائنا الأوّل، تلك الخطوة... خطوتنا المشتركة الموحّدة.

صار عندنا طفل يجمع بيننا إلى جانب العواطف والأهواء التي جمعتنا. صار لنا دمية جديدة نلهو بها. وَجَعٌ جديد، يتمشّى في عروقنا، وينام مسنودًا إلى جدار القلب.

قال لي نادر ذات يوم:

– أُبصرُ هالة من نور حول وجهك تحيط به، أشبه بالهالة التي يرسمونها حول الأيقونات... إنّها هالة الأمومة.

ثمّ انحنى فوق الصغير مادًّا ذراعيه:

– ناوليني إيّاه، سوف أتعلّم طريقة حمله.

ناولته سمير، فَمَا كاد يرفعه فوق ساعديه حتى صرخ كالملسوع: – خذيه... إنّه ينزلق من بين يديّ. إنّه يخيفني. أخشى أن يتحطّم... يا إلهي! كم هو صغير!

ضحكت للمشهد وأنا أردّد:

– لا تخف. إنّه قويّ.. انتبه كي لا يرفسك بإحدى قدميه.

– لا! خذيه، لا يصلح الآباء لاحتضان الأطفال... صدورهم ضيقة...

وأبو رنده هل ظلّ صدره واسعًا؟

فعل كلّ ما في وسعه ليحتفظ بها. وحنان لم تكترث. كانت بعيدة عن الطفلة منذ البدء. منذ لحظة انفصال الجسد الصغير عن جسدها، وضعتها بين يدي أمّها والمربّية، وتَحَرّرَت. ثمّ كان الطلاق، والفراق النهائيّ. ولم تعد تذكرها حتّى في جلساتنا الحميمة، حين كانت تفتح باب ذاتها وتصبّ مشاكلها وهمومها بين راحتيّ. وهذا ما جعلني أتساءل بيني وبين نفسي: إلى أيّ حدّ نحبُّ أولادنا بالسليقة؟ وإلى أيّ حدّ تلعب التربية، والرضاعة والمعايشة، دورها في هذا الارتباط الوثيق بيننا وبين أولادنا؟

وأَجابَت حنان عن السؤال مرّة واحدة، ثمّ أغلقت الباب.

كان ذلك قبل أن تسافر إلى لندن هربًا من الحرب، وفي عصر يوم من خريف 1975. يومها فاجأتني بزيارتها، وحيدة. قالت وهي تهمّ بالجلوس: – شئت أن أتحرّر من الأولاد فأرسلتهم مع السائق والمربّية، وهربت إليك.

– يا ألف أهلًا ومرحبًا.

عانقتها، ودعوتها إلى الجلوس. فاختارت الكرسي الهزّاز، وراحَت تترجّح فيه... والقلق يطفر من عينيها وحركاتها.

سألتها: «ما أخبار فريد؟»، فابتسمَت بسخرية:

– لا أخبار... أو كما يقول المثل الإنكليزي: «قلّة الأخبار أخبار سارّة»...

ثمّ أردفَت:

– هذا الوضع لم يعد يزعجني، تعوّدته، يا مها... لكن هل تعلمين ما هي أهمّ العبوديّات التي تتحكّم بنا؟ إنّها العادة. نتعوّد التدخين، الشراب، الكسل، فراق الزوج أو الحبيب.

هذا كلّه يصبح عادة ملازمة لكيان المرء.

قلت:

– هذا صحيح إذا كان الإنسان متجمّدًا، وأنت لستِ كذلك، ففي كل لحظة ترتدين إحساسًا جديدًا...

– وهذه عادة سيّئة، يا مها، صدّقيني إذا قلت لك إنّ حُبَّنَا لأولادنا هو إحدى العادات التي تلتصق بنا.

وهكذا راحت حنان تصبّ نظريّاتها الغريبة وتطفئ حرقة القلق في بحر الكلام.

غادرتُها لأُعدَّ الشاي، ثمّ عدتُ مسرعة، وجلسنا نرشفه بهدوء، وشمس الخريف الصفراء، تنفذ إلينا بهدوء، من فتحة النافذة الغربيّة.

ثمّ تابعَت:

– خذي رنده، ابنتي، حبلتُ بها وانسلخَت عنّي، ولم أَهتَمّ بتربيتها، والآن ليس لديّ أيّ شعور تجاهها.

قلت:

– التربية هامّة، ولكن حبّ الأمّ يبقى، من دون شكّ.

– لا... تستغربين إن قلت لك إنّه ليس هناك من حبّ يجمعنا. بلى، هناك علاقة جسديّة. جسدها انفصل ذات يوم عن جسدي، وهي لا تزال تشبهني... اكتشفت ذلك اليوم.

وسبقني سؤالي:

– أين؟ أين هي رنده؟ لم تذكريها منذ زمن بعيد؟

– لم أذكرها، لأنّها لم تكن موجودة بالنسبة إليّ. منذ سنين سافَرَت إلى فرنسا، أرسلها أبوها إلى معهد داخليّ هناك، وكانت تزور لبنان في عطلة الصيف، ولا تسأل عنّي.

– وأنتِ، كنتِ غائبة.

- لا ألومها يا مها. ولا يهمّني ذلك، هي لا تخصّني، ولكن اليوم...

قاطعتها:

– ماذا جرى اليوم؟

– فاجأتني بزيارتها. وكان يرافقها شاب فرنسي قالت إنّه خطيبها وسوف يتزوجان قريبًا. هو طلب إليها أن تعرّفه إلى أمّها، وهذا سبب الزيارة. جَلَسَت مثل الغريبة، وكنتُ قبالَتها، أتأمّلها ولا أصدّق، ابنتي، صبية، في الثانية والعشرين، جميلة مثل قلب النهار، ولا تحمل ذرّة عاطفة.

جلسنا غريبتين، مع ذلك الشابّ الغريب. ولم يكن هناك ما أقوله، سوى كلام سطحيّ. أوصيت الشابّ الغريب بابنتي. قال إنّهما سيقيمان في باريس بعد الزواج. هو طالب طبّ، يتابع تخصّصه، وهي لا يهمّها العلم، وتكتفي بأن تكون ربّة بيت. كانت، طوال الوقت، تستشير ساعتها، مستعجلة لترحل. لم تسأل عن إخوتها، ولم أتحرّك لأعرّفها إليهم... هذه هي ابنتي.

– وأنتِ منفعلة؟ مستغربة؟

هَزَّت رأسها نافية:

– أبدًا. سَرَدتُ لك حكاية حصلت معي اليوم. وعلاقتنا هذه برهان على أن حبَّ الأمّ لولدها ليس غريزيًّا. كذلك ردود فعل الأولاد. رنده لم تكن تائقة لترى وجهي. حتى ذلك الشوق الذي يداعب الخيال، لا تحسّ به! على كل حال، هذا أفضل من التعلّق. وتبقى كلّ واحدة منّا حرّة في تصرّفها.

لم أعلّق على كلام حنان. ماذا أقول لها، وأنا أعرف أنّ علاقتها بابنتها لا تخلو من ردود الفعل المعاكسة لعلاقتها مع أمّها؟ فشوقها إلى فكّ الرباط مع أمّها تجسّد في التخلّي التامّ عن رنده.

هكذا فكّرتُ بيني وبين نفسي، وأبقيتُ الفكرة طَيَّ الضمير، ولم نعد إلى الحديث عن رنده بعد تلك الجلسة، وكأنّ زواجها، ثمّ سفرها كانا دفّتي باب أَقفلَته حنان وأراحت الضمير.

ومرّت في بالي خاطرة غريبة، تُراها حكاية مبتكرة، حكايتها عن رنده؟ وهل كانت رنده كلامًا بيننا، ترشقني به حنان، بين اللحظة واللحظة؟ أم كانت مهربًا تلجأ إليه كلّما شاءت أن تمعن في تعذيب نفسها؟

وتَغَلغَلَ الشكّ عميقًا في ذاتي وعيناي مسمّرتان فوق وجهها: «من تكون حنان؟ صديقتي الحميمة منذ عهد الدراسة! إلى أيّ حدّ أستطيع فهمها؟ وهل يمكنني أن أدرك ما يجول في فكرها؟»

وأسئلة أخرى راحت تتهافت عليّ ونحن نجلس متقابلتين، وبيننا يقف لغزٌ اسمه رنده... رنده في الرابعة من عمرها، رنده في السابعة... في الثانية والعشرين... وإلى جانب رنده وقف الماضي، وأسئلة كثيرة مطروحة، تبحث عن أجوبة لها.

تلك حال حنان أبدًا.

تحضر لتخضّ المياه الراكدة.

لتلقي الأسئلة، وتطرح المشاكل، ثمّ لا يهمّها أن تبحث عن أجوبة أو تجد الحلول.

4

وها هي تعود إليّ، من غربتها القسريّة، من دون أن تبدّل نهجها. من يَدري ما تُعدُّه لي من أسئلة، وكيف يمكنني أن أجيب، وأنا لم أنعم بلحظة واحدة من النوم أو الراحة؟...

وتعود كلماتها تطنّ في أرجاء الغرفة مثل سرب النحل:

– تعلمين، لو سافرتُ إلى أقاصي المعمور، أعود دائمًا إليك ونلتقي، وكأنّنا لم نفترق أبدًا.

وعادت هذه المرّة، لتثير الغبار في موضع كل خطوة، ومع كلّ نقلة من خطاها.

ونحن ما زلنا نعمل على جمع الحطام المتناثر... نحاول ترميم البيت المنهار، الوطن المنهار... نحاول أن نبلسم الجراح النازفة، النازفة حتى النخاع.

وجراح وجهها اندملت، وتوارت خلف هذا القناع البلّوري!

أعجوبة أخرى من عجائب جراحة التجميل!

وبقي في البال جرح آخر.

– وبقيَت في مكان ما من هذه المدينة الخربة دارة عزيزة تحتاج إلى ترميم.

قالت ذلك، وركّزت نظرها عليّ.

ثمّ تابعت:

– دارنا، الجرح المفتوح حتى أعماق الصدر. لن يرتاح لي بال حتى أبصرها كما كانت.

– ومن يقوم بالترميم؟
سألتها، وأنا لا أتوقّع الجواب.
فأجابت:
– هذا هو السؤال... فريد وَعَد أمّي ببناء دار جديدة، ولكنّي أخشى ألّا يستطيع الوفاء بالوعد. ليست لديه الرغبة في أن يعود إلى لبنان، وهي باتت عاجزة... بل مقعدة.
ويستحيل أن تبقى الدار كما هي، سقف منهار، وجدران محروقة، ونوافذ مفتوحة مثل الجراح اليابسة... مثل الثقوب في جمجمة ملقاة على الطريق...
الترميم لا يفيد، فالدار في حاجة إلى إعادة بناء من الأساس.
وخطرَت لي فكرة:
– حاولي أن تقنعي فريد ليزور بيروت. ربّما تؤثر فيه المشاهد الحقيقيّة.
فردّت على الفور:
– لا. فريد لن يعود. وهو يفاخر الناس هناك بذكائه، وسرعة خاطره. ويقول لهم إنّه توقّع كلّ ما حدث في لبنان، ولهذا غادره باكرًا.
– لا تستبقي الأمور يا حنان، متى عدتِ احملي إليه القصّة الكاملة لمشاهداتك... وانتظري.
– عفوًا يا مها. لم أُسمعك سوى الشكوى والنقد.
وإذا نظرتِ إلى حياتي نظرة خارجيّة ترينَ أنّي أتمتّع بكل ما تحلم به المرأة: الزوج الناجح، وسيم الشكل، الأولاد الأصحّاء، البيت الفخم والسفر والمال.
من الخارج، أنا أسعد إنسانة. ولكن، من الداخل، أشعر بأنّي أُشبهُ دارَ أهلي، بقايا جدران محروقة، ونوافذ مثل الجراح المفتوحة، وسقف مهدّم و...

5

كان الفجر قد تحوّل إلى صباح مضيء، أطلَّ علينا من خلف غيوم راحت تنتشر في الفضاء كقطيع غنم سائب. وانطلقت جوقة العصافير، ترنِّم على أغصان شجرة الكينا مُجَرَّحة الأوراق، الخارجة من عراك مع العاصفة، والمجاهدة لتدفع براعمها الجديدة في وجه الشمس، وتغطّي بها آثارًا خلّفتها الحرب وقسوة الشتاء، فوق الأغصان والفروع.

فتحتُ النوافذ جميعها، ودعوت حنان لتتأمّل تلك اللحظات الإلهيّة من الصباح الجديد، وتتأمّل الحاجب الظاهر من بحر بيروت، هذا البحر الذي لا يملّ مداعبة الرمال، في أيّام الحرب كما في أيّام السلم... ثمّ انتقلت نظراتنا، تلقائيًّا، إلى آثار حرب السنتين، المنثورة على امتداد الشاطئ والمرتفعة في شكل تخاشيب وضيعة تؤوي التجار وبضائعهم وتردّ عنهم شيئًا من هجمات العواصف البحريّة، وغضب الطبيعة.

الفصل السابع عشر

1

بَنَيناها حجرًا حجرًا، دارنا.

كانت أيدينا متشابكة في كلّ خطوة. كنّا نعمل ونكدّ من دون أن نشعر بالتعب، وصار عندنا حافز جديد للبناء، والعمل: هذا الطفل الذي تملأ صرخاته أجواء البيت، تملأ وجودنا.

حين أنظر من هذا البعد إلى تلك الأيّام، أشعر بأنّ الزمن ابتلع الذاكرة، وكلّ ما بقي فيها هو لمحات لخطى مشيناها فوق تراب الواقع.

كان في وسعي أن أترك العمل في المجلّة وأنصرف إلى تربية «سمير»، لكنّ نادر لم يرضَ:

– الصحافة رسالتك. من خلال الكلمة تخدمين مجتمعك، فكيف يجوز أن تكبتيها؟ ثمّ إنّك سعيدة في العمل، وفيه تجدين مدى انطلاقك وتحرّرك.

هكذا كان يدفعني إلى التدرّج في العمل وفي الحياة، يتحدّاني في كل لحظة، وبذلك يُعَزِّيني من رواسب التربية المتزمّتة، والكبت المزمن.

ويتابع في مناسبة أخرى:

– اخرجي إلى البحر وتَعَلَّمي السباحة. اسبحي، ارتدي «مايوه» من قطعتين، يُبرز جمال جسدك... وتعلّمي الرقص. عليك أن تفعلي شيئًا لهذا الجسد لتُخرجيه من قالبه المتحجر.

وأنا أنزوي في الظلّ، وأتكوَّم على نفسي كلّما تعرّض جسمي لنور الشمس، ويصعب عليّ خلع القناع. هذا الجلد الذي أرتديه فوق جلدي، كيف

أخرج منه؟ إنّه رواسب الرمال والحجارة وكل جرف الأنهار التربويّة.

جلدي، بيئتي التي تُطَوِّقني كالأسوار. ويد نادر تدفعني:

– اصعدي في السلّم درجة درجة! المهمّ أن تبقى مسيرتك صعدًا، ويظلّ بصرك مشدودًا إلى فوق.

وهذه السلاسل الحديديّة تشدّني أبدًا، إلى التراب. أحاول أن أرتقي السلّم، نحاول معًا.

مجدًا بنينا، بيتًا بنينا!

كلّ مقعد كلّ ملعقة لها ذكرى.

وأطوف في أرجاء هذا العالم الصغير الذي اخترته مقرًّا لراحتي، وأشعر بالفرح والرضى وبأحاسيس أخرى كثيرة تشاركنا فيها، وغذّيناها مثلما نغذّي غرساتنا فوق الشرفة.

حوّلنا شرفة المنزل إلى حديقة، والمدينة من حولنا تزداد اختناقًا، وتشدّ على صدورنا وتضغط. والأولاد يكبرون، وتضيق بهم الغرف الصغيرة، الشقة الصغيرة، ويكبر الطموح...

جاءني نادر يومًا، منهوك القوى:

– قَرّرت أن أترك الوظيفة. تكاد الرتابة تقتلني.

الوظيفة بدأت تزعجه، وقد أخفى عنّي ذلك طوال سنين:

– يكفيكِ ما بين يديك من متاعب الصحافة والمنزل والأولاد.

أجل، صار عندنا ثلاثة أولاد. ثلاثة أفواه تبحث عن اللقمة، وتبحث عمّا هو أبعد من اللقمة.

وافقته على رأيه من دون تردّد:

– المهمّ أن تكون راضيًا في عملك. اتركِ الوظيفة بلا تردّد.

– وتتكفّلين أنت بمعيشة العائلة؟

– لا تسخر يا نادر. أحاول أن أتوكّأ على مرتَّبي الضئيل ريثما تجد عملًا آخر.

ولم تكن خطواته التالية في الظلام!

كان قد فكّر في عمل جديد، وهو مغامرة لا نعرف إلى أين تقودنا. فكّر أن ينشئ شركة زراعيّة:

– بلادنا في حاجة إلى الإنماء الزراعيّ، وأنا أعيش مثل جرذ في زوايا هذه المدينة.

2

قادني ذات يوم إلى سهل البقاع، ليريني الأرض التي اختارها لإنشاء المزرعة:

– انظري، هذه الأرض الجافّة. إنّها في حاجة إلى يد الإنسان تقلّب التربة، وتفجِّر المياه، وتغرس. مشروعي يحمل بذرة الجنون. إنّه مغامرة كبرى، ولا أدري ما إذا كنت سأقودكم إلى المجاعة.

قلت بتفاؤل:

– بل تقودنا إلى الازدهار. المهمّ أن تكون مؤمنًا بما تعمل.

عشنا في دوّامة القلق طوال شهور، وفي بعض الأوقات كنت أخشى أن يتغلّب اليأس على نادر ويسلبه الرضى والطمأنينة.

إنّ صراعًا كبيرًا يدور بينه وبين نفسه: لماذا لم يبدأ من قبل؟ وماذا لو فشل؟

قلت له:

– كلّ عمل يحتضن بذرتين: بذرة النجاح وبذرة الفشل. ولا بدّ لواحدة منهما من أن تنتصر على الثانية... المهمّ أن نحاول ولا نترك الباب مفتوحًا للقلق والخوف.

وكان علينا أن نمرّ في مراحل من القلق والخوف والتعب الجسديّ المضني، لكنّ بذرة النجاح كانت تنمو داخل التربة المجبولة بالمحبّة والرجاء والبحث عن الأفضل.

ومثلما كان حبّنا ينمو ويكبر، هكذا راحت تلك البذرة تنمو وتتغذّى بالنور، وقطر الندى... وتتغذّى بعرق الجبين وإرادة جبّارة، تبني، وتحوّل الأرض القاحلة إلى بساتين درّاق وتفّاح وكرز، وتحوّل الصخر إلى عمارات حديثة تزيّن صدر السهل، وتنعش قطاعًا هامًّا كان لا يزال مهملًا.

وكان نادر يعود إلى البيت، في نهاية كلّ نهار، مُتعبًا، مرهقًا، مشرق الوجه، ومملوءًا فرحًا ورغبة...

3

سنة فوق سنة يتراكم الزمن.

ويكبر الأولاد، ويتّسع أفق العمل. بذرة النجاح كانت قويّة، صرعت الفشل ودفنته على طريق الكفاح المستمر.

وكانت الأرض تنمو معنا، تنادينا في كل حين، ونلبّي النداء بفرح... أرضنا الطيّبة المعطاء، تردّ الكيل كيلين. نغرسها ونسقيها عرق الجبين، فتعطينا ثمارها المقدّسة، وتغرقنا بالخير وهدوء البال.

وحول الأرض، وعلى حواشيها، كانت تنمو نبتات كثيرة، بينها الشوك والقلق على المصير.

لم يكن النجاح الذي حقّقه نادر نجاحًا نهائيًّا:

– إذا لم يشمل الإنماء الوطن بأسره، لن نعرف الاستقرار.

كان يردّد هذه العبارة في كلّ مناسبة.

وكنت أقول له:

– لستَ المسؤول عن الوطن، تَمَتَّع بالنجاح ضمن دائرتك.

فيردّ بحدّة:

– كلّ مواطن مسؤول، وشجرة السرو لا تقوى على حماية نفسها من العواصف في حقل غُرِس بالطحلب.

ثمّ يتابع:

– إنّ كلّ ازدهار ينمو حولنا يبدو مُصطنعًا. وما عليك إلّا أن تنظري من نافذة غرفتك إلى الشارع.

4

لم أكن في موقع بعيد عن الشارع، بل إنّ عملي كان يدفعني إلى معايشة الشارع في كل تقلّباته.

أمّا الشارع العريض أمام منزلنا، فهو أشبه بنهر يخترق أحد الأحياء السكَنيّة الكبرى! على ضفته اليمنى تقوم أكواخ قديمة سُقِفَت سطوحها بالتنك وألواح التوتيا. وعند الضفّة اليسرى تشمخ البنايات الفاخرة حيث يسكن السفراء

والوزراء وكبار الأثرياء. ونافذة بيتنا بين الاثنين، بل تطلّ على هذا المشهد وكأنّها عين ترصد التناقض في هذا المجتمع العجيب.

في الليل، كان يقلقنا صُراخ الأطفال المرضى، ينطلق من الأكواخ الحزينة، وفي الليل كانت تقلقنا صرخات المحتفلين فوق الشرفات الأنيقة، حيث تُقام الحفلات والولائم.

وفي النهار كان أولاد الفقراء يقفون عند الضفة اليمنى، يتأمّلون أولاد الأغنياء، يلعبون فرحين في الحدائق، أو فوق الشرفات الزاهية. وتنهر المربّيات الأولاد الأغنياء كيلا يجتازوا الشارع ليلعبوا مع الأطفال الآخرين.

كلّ يوم، بل كلّ لحظة، كان المشهد نفسه ينبسط أمامي، يدفعني إلى التساؤل:

ماذا تكون النتيجة؟ إلى أين يقودنا هذا التناقض؟

وأبحث في ذهني عن الجواب، فلا أجد جوابًا... ويزحف طفل من أحد الأكواخ، يزحف إلى الشارع، فتدهَسه سيارة مسرعة، وترتفع الولولة، وتهرع الأمّ والجيران والأقارب.

ويقف الخدم فوق الشرفات الأنيقة، يراقبون المشهد من دون أن يبدو عليهم أيّ انفعال.

كنت أحيانًا، أردّ الستائر لأحجب تلك المناظر عن عيني، كنت مثل النعامة تدفن رأسها في الرمال، ولا تحسب حساب الأيّام المقبلة.

وكثيرًا ما حاولت الهرب من التساؤلات المتراكمة في ضميري إلى تحرير مقالة في زاويتي الأسبوعيّة.

ولكن هل يكفي هذا جوابًا؟

ظلَّت الحالة كذلك، والهرب من المسؤولية هو سيّد الموقف، حتى وقعت الكارثة، وكانت حرب الخامس من حزيران...

5

في صباح ذلك اليوم لم أسمع أخبار الراديو، اكتفيت بقراءة الصحيفة. كانت الساعة التاسعة حين قصدتُ بقّال الحيِّ لأبتاع بعض الحاجات. كان الرجل

مسمّرًا في مكانه، والراديو «الترانزيستور» أمامه على الطاولة، يملأ المخزن بضجيج متشابك.

– انفجرتِ الحرب.

قالها وكأنّه يزفّ إليّ بُشرى سارّة، ثمّ تابع:

– اسمعي، ألم تسمعي الأخبار؟

أجبته بأنّي لم أفتح المذياع. فهزَّ رأسه وتابع حديثه مع نفسه:

– قال حرب قال... سوف يأكلونها على رؤوسهم... إسرائيل لا تُقهر.

كنت دائمًا أتهرّب من فتح حوار مع هذا الرجل الذي حمل رأسماله من أحد المَهَاجر وجاء يستثمره في حيّنا. كان له ذلك الموقف الانهزامي الساخر، والمحقِّر لكل ما هو وطنيّ.

وفي تلك الصبيحة كانت كلماته تسقط فوق رأسي كالمطرقة. أدرتُ له ظهري وعدت من حيث أَتيت. وبدلًا من أن أتوقّف في المنزل، تابعت طريقي إلى المكتب، فوجدت الزملاء مبكّرين في الحضور، على غير عادة. وكانوا في هياج وغليان، الحرب الخاطفة وقعَت، والإذاعات العربيّة تبث أناشيد الحرب، وتقطعها بين الحين والآخر، لتُقدِّم آخر أخبار المعركة... وأخبار الانتصار على كل الجبهات.

رُحتُ أُداري خوفًا أخذ يرتعش في صدري! كان يصعب عليّ أن أُصدّق ما يجري. عشت مثل الجميع، في ترقّب وحماسة، وسمعي لا يحيد عن المذياع، مثلي، مثل سائر الزملاء والمواطنين.

وكان الراديو رفيقنا في اليوم السادس من الحرب، ونحن نتسلّق طريق الجبل، باتجاه سهل البقاع.

كانت الإذاعات تتابع بثّ الأخبار بأصوات دراميّة، دفعت الدموع إلى عينيّ، فبكيت. بكيت بحرارة وأنا أتأمّل سهل البقاع يمتدّ هادئًا، مبقّعًا بكل الألوان الحيَّة، وشمس الأصيل تسحب خيوطها بتأنٍّ وكأنّها نادمة على الغروب.

بكيت بحرارة وصمت، ونادر إلى جانبي، يُمسك مقود السيارة، ونظراته عالقة عند الأفق البعيد.

كلّما تذكّرت تلك الدموع، أشعر بالخيبة والأسى.

وعلمتُ، في الأيّام التي تَلَت، بأنّ وقتًا طويلًا سوف ينقضي، قبل أن يندمل ذلك الجرح المفتوح في صدري.

6

كان ذلك الأسبوع نقطة تحوّل هامّة في وجودي، ومشاعري، وفقدتُ، أوّل ما فقدت، لذّة الاستمتاع بالحياة وبالأشياء الحلوة التي تلوّن الحياة، مثل الحبّ والمرح! حتى حبّي لزوجي وأولادي لم يعد له طعمه السابق. صرت كمن أُصيب بزكام حادّ وفقد حاسّتي الشمّ والذوق...

وفهمت، بكل أسف، ومن دون أن يفيد فهمي أحدًا، فهمت وأدركت أنّ الإنسان لا يعيش في كهف عزلته، وأنّه مشدود إلى مجتمعه الصغير والكبير بكل روابط المسؤوليّة.

وأدركت معنى أقوال نادر، كلّما دار الكلام على المسؤوليّة الجماعيّة، وعجز الفرد عن البقاء منعزلًا، إذا شاء أن يكون فاعلًا في بيئته ووطنه.

وأكثر من هذا كلّه، أدركت أنّ عائلتي لا تقتصر على زوجي وأولادي وأقاربي بالدم، بل تتجاوزهم إلى الوطن، بل إلى الإنسانيّة بأسرها...

وكانت تلك الحرب، مثل كلّ الحروب، طعنة حادّة في خاصرة الإنسانيّة. وكانت الأيّام، بل الأشهر التي تلت، أشبه بأيّام الحداد، انزويت خلالها في المنزل، انكفأت على نفسي ونسيت الكثير من عاداتنا الاجتماعيّة السابقة.

الفصل الثامن عشر

1

مناظر البؤس متى تُمحى عن وجه المدينة؟

وجاءت هذه الحرب لتخلّف أكداسًا من البؤس الجديد!

قالت حنان وهي تتأمّل أكواخ الخشب والتنك من شرفة منزلي:

– إلى متى يظلّ إنساننا حاملًا قدره فوق ظهره؟ كم يستطيع هذا الإنسان أن يصمد؟

كانت تطرح تساؤلاتها للصباح الحياديّ المطلّ على بيروت. وكنت أسمعها، من الداخل، بينما أتابع إعداد الفطور للأولاد.

رفعَت نبرةَ صوتها لتُسمعني أكثر:

– في بيتكم القديم كنّا نستطيع أن نرى البحر، هل تذكرين؟ تلك الأكواخ المتواضعة لم تكن تحجب زرقته عنّا، أمّا الآن!...

قاطعتها:

– أذكر جيّدًا. لم يَبقَ هناك شيء في حياتنا «المشرنقة» سوى الذكريات... الأكواخ القديمة لم تعد هناك. باعها أصحابها، ورحل الفقراء، وقامت مكانها بنايات فخمة...

– لكنّ الأكواخ عادت تظهر من جديد.

– هذه أكواخ موقّتة. وهي إشارة الصمود والحيويّة، عند سكان المدينة، وعلامة جيّدة للتاجر البيروتي.

2

كان موضوع حديثنا تلك الأكواخ التي نبتت مثل الفطر، على امتداد الرصيف المحاذي للبحر، الشرفة الوحيدة التي تطلّ منها بيروت على الطبيعة، وتغازل من فوقها صفاء البحر.

كلّ يوم تمتلئ الأكواخ بالبضائع منذ السابعة صباحًا، حتى إذا حلّ المساء جمع التجّار بضائعهم فوق ظهور السيّارات الصغيرة، في الحقائب، أو علب الكرتون، وعادوا بها إلى منازلهم...

كلّ يوم تتكرّر هذه العمليّة، فلا التجّار ضجروا ولا الأحوال عادت إلى طبيعتها.

وحنان، ماذا يقول لها هذا المشهد؟

سألتها وأنا أناولها فنجان قهوة، فهزّت رأسها حائرة:

– لا أعلم. أنتِ بقيتِ في بيروت، وتابعتِ مسلسل الرعب حتّى النهاية، فإذًا بإمكانك أن تجدي الوصف الملائم لهذه اللوحة.

– أنا عشتُ لحظات القلق ولم أجد حتى الآن الأسلوب الملائم لتسجيلها. أقول لك شيئًا واحدًا يا حنان: الإنسان مخلوق عجيب، لا يُقهر ولا حدّ لطاقاته. تحاولين أن تختمي عليه في زاوية ما، فإذا به يتفجّر في عدّة زوايا.

إنّ قطرة الماء البسيطة الضعيفة تشبه الإنسان. مثله تظلّ تحاول الوصول، ومثله تجد دائمًا الطريق، حتى ولو اعترضتها جدران الصخور.

الإنسان، هو تلك القطرة في تركيبها وبساطتها، فيه يتجلّى صفاء الآلهة كما تُختزن ثورة الشياطين. والذي نبصره اليوم هو ثمار فجّة لتفجّر براكينه الشيطانيّة.

قالت حنان الشاردة:

– لكنّه دائمًا ينهض من تحت الركام، من تحت رماد الحرائق، مثل طائر «الفينيق». ولكن هذه المدينة، حبيبتي بيروت، متى تُجنَّح وتنهض؟

لم تكن حنان تنتظر جوابًا عن سؤالها. طرَحته للصباح، للهواء، لطيور النورس المحوّمة فوق الشاطئ. كانت تعرف أنّه ليس هناك من يستطيع أن يجيب عن سؤالها بثقة وتأكيد. وكانت تعرف أنّ الحياة التي نامت، وتخدّرت إلى حين، عادت تبرعم وتفرّخ، وأنّ الفرح الذي مسحوه عن وجه المدينة بدأ

يُطلّ بخجل، مع أغصان اللوز المزهرة فوق ركام الخراب. الموت ينتصر إلى حين، لكنّ الغلبة أبدًا للحياة، وإلّا فكيف نفسّر استمرار الإنسان، وبقاءه، برغم كلّ حروب الإفناء والإبادة التي شُنَّت عليه، أو شنّها هو على نفسه عبر العصور الماضية؟...

منذ مئات السنين، والمحاولة تتكرّر، والتاريخ يُعيد نفسه، ويهبط فوق هذا الشاطئ الجميل للاستحمام والقنص. ومنذ مئات السنين وطائر «الفينيق» يفرّخ وينهض بعد كلّ معركة ختاميّة، بعد كلّ محاولة إفناء.

3

لم أتوقّع شفاءً سريعًا من آثار حرب حزيران. وإذا اندملت الجراح فإنّ موضعها لا يعود إلى سابق حاله، وآثارها تظلّ مثل نقوش حفرت في الصخر.

وكانت الجراح الخفيّة ترافق خطانا، في العمل، في العيش، والفكر والعاطفة، وفي علاقاتنا مع الآخرين. وصرنا نتوق إلى محو ما علق في الذاكرة من آثار الخزي والإهانة. لكنّ الإنسان لم يخترع بعد وسيلة لمحو مثل هذه الآثار.

بعض تلك الآثار يحفر عميقًا في النفس، ولا نعود نقوى على انتزاعه، ويبقى متحالفًا مع لحظات الذكريات الفريدة.

4

وكان لقائي مع رئيس تحرير المجلّة من تلك اللحظات التي لا تُنسى.

كان قد عاد من رحلة قام بها إلى البلدان العربيّة ليدرس الأوضاع بعدما هدأت الحالة، وانتهت الحرب الصاعقة، وبقيت نفوسنا معلّقة فوق ذرى الأشجار في أدغال السياسة المحليّة.

كان يجلس خلف مكتبه، يمسك القلم ويهمّ بكتابة مقالته الافتتاحيّة. وكانت أصابعه ترتعش، فيرتعش القلم ويحرن، ويعصاه. قلمه السيّال يعصاه للمرّة الأولى في عمره الطويل في الصحافة.

سألته عن عنوان المقالة، فنظر إليّ والألم يقطر من عينيه وقال:

– عن أكبر خيبة أمل في حياتي سأكتب. لقد انهار كل شيء، وتلاشى حلم جميل، عايشته سنوات ودغدغ وجودي مع كلّ حرف. انتهى كلّ شيء.

– والحرب؟...

ردّ وكأنّه يوجّه صفعة إلى مجهول:

– وهذه أيضًا انتهت. لن يحاربوا. لن يحاربوا. وهم راضون بالحياة الخاملة كيفما جاءتهم... أقول لك، لن يلتقوا على ساحة معركة، وليس لمواجهة اسرائيل.

قلت:

– هذا استنتاج وقتيّ، متأثّر بانفعالك الحاليّ، ولكن من يدري كيف يكون المستقبل؟

– أنا فهمت ما يكفيني، قابلت الزعماء، الذين بيدهم شؤون الحرب والسلم، وهم مستسلمون، خاضعون للقدر، وقدرهم يرسل رياحًا معاكسة.

5

كان من عادة ذلك الإنسان الكبير أن يبكي في المواقف المتأزّمة. لكنّ الدمعة احترقت بين جفنيه، ولأوّل مرّة أبصرته محشورًا في زاوية ضيّقة من زوايا هذا العالم المضطرب. في يده قلم، ولا يعلم ماذا يكتب، وماذا يقول:

– حتّى السخرية تنقلب ضدّنا. رسوم «الكاريكاتور» الساخرة، لم تعد تلبّي، بل هي انحازت ووقفت إلى جانب العدو. ماذا أقول للقرّاء؟ خدعناكم؟ ضحكنا منكم؟ أم نقول: خُدِعنا معًا، وكلّنا مخدوعون؟... أولئك القادة الأذكياء كانوا أخبث منّا؟ والقلم الصحافيّ لا يجوز أن يصمت. لكنّ الحبر تحوّل إلى ماء لا رائحة له ولا طعم، ولا لون. وبدأ الحبر يتصرّف مثل الماء ويأخذ شكل الإناء الذي يحتويه. عدد كبير من الأقلام وجد في هذا الأسلوب مهربًا، واستراح. وشعرتُ لأوّل مرّة بأنّ قلمي يعصاني، ولا يجد ما يقوله على صفحات المجلّة... ولم تعد الكلمة أداة تحوّل ويقظة وتغيير. وكنّا بحاجة إلى ذلك التغيير الجذريّ الذي لم يُسمح له بالنمو، بل خُنق في مهده.

وكلمات نادر تطنّ في أذني:

– إن لم يحصل هذا الانقلاب الكلّيّ الشامل، فلن نعرف حياة مستقرّة.

ويتابع:

– يجب أن يبدأ ذلك في الإعلام. أريد أن أقرأ في صحيفة واحدة مختصرة، من دون إخراج فنّيّ، نشرة بسيطة تنقل إليّ الخبر الصحيح وتترك لي حريّة التعليق...

وظلَّ نادر ينتظر، والصحف تتراكم، وتولد كلّ يوم صحيفة جديدة. لكنّ نشرته المنتظرة لم يُقَيَّض لها أن تولد، الزمن غير مؤات لمثل هذه الولادات.

ويقول صحافيّ صديق:

– الحقيقة قنبلة موقوتة يا نادر، وانفجارها يحدث كارثة...، ثمّ تَذَكَّر، ليس كلّ ما يُعرف يُقال.

كان هذا شعارًا رفعه بعض الصحافيين في المرحلة التالية: «ليس كلّ ما يُعرف يقال»... وراحوا يكتبون ما يعتقدونه ملائمًا لأذواق القرّاء.

بدأت الصحافة تُوَجَّه، تُراقب ذاتها، كبرت وصارت جسمًا جبّارًا... وصارت الصحافة في لبنان ماردًا يلتهم الأقلام ويطلب أقلامًا جديدة.

أطلّت أسماء جديدة. على بيدر الصحافة نُشرت المواسم والغلاّت الدسمة.

وكنت في قرارة نفسي أشعر بالخوف، وأحار في تفسير ما يدور حولي، ولا أدرك إلى أين يمكن أن يوصلنا هذا الصراع الحادّ.

وفي يوم وجدتني أضع حدًّا لصراعي الشخصيّ فأحرّر بدل المقالة الأسبوعيّة، كتاب استقالتي.

كان عندي أكثر من عذر، ولكنّي اخترت منها الأبسط: عذر الأمومة.

قلت لرئيس التحرير وهو يحاول أن يثنيني عن عزمي:

– لم أعد أقوى على حمل ثلاث مسؤوليّات: الصحافة، والزواج، والأمومة...

ولم يبد مقتنعًا فقال:

– حملتِ هذه المسؤوليّات مدة خمس عشرة سنة.

– وتعبت.

هزَّ الأستاذ رأسه من دون أن يعلّق. كان يشعر معي بأنّ خيبة الأمل تحملني على ذراعيها وتدفعني لأتخلّى عن أحبّ الأعمال إلى قلبي.

وهكذا عدت إلى البيت، لأصبح واحدة من آلاف النساء المنصرفات إلى الأعمال المنزليّة.

دخلت محراب العمل الصامت، واكتشفت أنّي بحاجة إلى عدّة أسابيع من التدرّب والممارسة لكي أستطيع القيام بأيّة وظيفة من وظائف المنزل.

عدت إلى البيت، الدوّامة، والهاوية التي تبتلع كل مجهود. تستهلك المرأة، تحرق دقائقها والثواني وتظلّ تطلب المزيد. هذا البيت الشرقيّ الكثير الطلبات! حاولت أن أنسجم معه، وأن أقرأ أسماءه الكثيرة مكتوبة فوق وجوه النساء، مختومة فوق الجباه المجعَّدة، والبشرة الجافّة، والعيون التي فقدت رونقها وألقها...

حاولت أن أتعلّم الطبخ وفشلت، ولم يكن النجاح حليفي في الأعمال الباقية. وتذكّرت أيّام الطفولة في القرية، ونبوءة الجارات بأنّي سأكون ربّة بيت فاشلة... فاشلة لا أعرف الرتق، ولا العجن، ولا صنع الخبز المرقوق.

فاشلة لا أُجيد فرك الكشك، وجَرش البرغل وتصويل القمح.

وكانت المنافسة مع فتيات الحيّ تدفعني إلى أن أنتهي في ركن معزول مع دموعي وكتاب.

وأحيانًا كنت أهرب على متن غمامة، فتمسكني أمّي في منتصف الطريق، وقد أسنَدتُ قامتي على عصا المكنسة وأطلقت لخيالي العنان، أو تركتُ المكواة الحامية على قطعة الثياب، وتصاعدت رائحة الحريق، وشاغلي قصّة عابرة سبيل مكتوبة على حاشية صحيفة صفراء، مصدرها بائع العلكة والمعلّل.

ويرتفع صوت أمّي:

– ماذا أفعل بك؟ كيف أعلّمك لتصبحي ست بيت؟

وتساعدها جارتنا «أمّ الياس»:

– هذا الكسل لا يطعم خبزًا. شو ناطره يا عيني؟ فارس الفرسان يشيلك ويحطّك في الجنّة؟ أو يبني لك قصر مرمر؟ هون الشغل، تعلّمي بكّير، وإلّا الحياة تعلّمك... والحياة غير الأمّ.

«أمّ الياس» بعيدة عنّي الآن، وأمّي كذلك، ولا تعرفان أنّ النبوءة تحقّقت، فأنا ربّة منزل فاشلة، لكنّي سأفعل المستحيل لأحفظ لهذا المنزل ركائزه.

خمس عشرة سنة أنفقتها في مطاردة أخبار الناس، وكتابة المقالات. ومن قبل كانت الدراسة شاغلي، ولم أكن أفكّر في هذه الهاوية التي تبتلع كلّ جهد...

7

والآن، ماذا أفعل؟ وكم سيطول بي الزمن؟... كم يبدو طويلًا وباعثًا على الضجر، تفكيري بأنّي ساتابع هذه المهنة!

طرحت السؤال مرّة على نادر. كنّا وحدنا في المساء، وقد نام الأولاد، وأخذ منّي التعب كل بادرة مشرقة.

ابتسم وأجاب:

– كنت أحسب هذا الحساب. لماذا لا تعودين إلى الجامعة لتتابعي دراستك العليا؟ العلم لا حدّ له، اختاري بعض الموادّ الجديدة. والعلم في تجدّد دائم وعلينا أن نواكب الزمن... أو لماذا لا تتابعين دراستك في معهد الفنون؟ إنّها فرصتك لتنمّي موهبتك في الرسم.

– عن أيّة موهبة تتحدّث يا نادر؟ فأنا لم أرسم خطًّا مستقيمًا في حياتي.

– وهذا بالضبط ما أقصد. ليس بالضرورة أن تجيدي رسم الخطوط المستقيمة. هناك أشكال متعدّدة في الفنّ، ومتى دخلتِ هذا العالم تختاري ما ينسجم مع مواهبك.

مواهب!...

نظرة نادر إليّ لا تنبع من الواقع، بل من شغاف القلب المحبّ.

كنت أحلم بأن أصبح فنّانة مثلما يحلم الفيل بأن يصبح راقص «باليه». قرأت كثيرًا عن الرسم والرسّامين، حياتهم، وصراعهم، وسعادتهم، وتعاستهم...

وكلّما فتحت بابًا على ذلك العالم السحريّ، كنت أشعر بأنّ هناك يدًا تمتدّ لتأخذ بيدي ولا أعطيها الفرصة، ولا أستجيب. أمّا الآن، فعليّ أن أحاول:

– أجل يا نادر، أحاول. قد لا أُصبح فنانة مرموقة، ولكنّ الرسم يساعدني لأتحمّل رتابة الحياة اليوميّة. أرسم لنفسي، في غرفتي الصغيرة المنعزلة. أترك الريشة تعبّر عما يراودني من أفكار وأحلام، بعدما حطّمتُ القلم على صخرة عنادي.

8

ومع بدء موسم الدراسة جمعتُ نفسي، واستنفرتُ طاقاتي النائمة، وتوجّهت إلى معهد الفنون حيث تسجّلت طالبة في السنة الأولى.

وعاد طعم الأيّام الماضية يدغدغ مشاعري، عدت طالبة، جامعيّة، حرّة، لبضع ساعات على الأقل.

هنا، أضيع بين مئات الوجوه الفتيّة، وأنسى همومي المنزليّة، والزمن الزاحف فوق بشرتي، وأحزان الأيّام الماضية، وأعود منتعشة، حرَّة، طالبة للمعرفة، بكلّ إخلاص وشغف.

أخفيتُ الخبر عن أولادي، وصرتُ أذهب إلى الجامعة، في أثناء غيابهم عن المنزل، كنت أتوق إلى أن أفاجئهم حين أستطيع أن أنقل خطواتي الأولى في عالم الأشكال والألوان، كما كنت أخشى لواذع تعليقاتهم.

وهكذا سرتُ في الطريق الجديد، لا أدري إلى أين يوصلني المسير، وإلى أيّ ارتفاع تحملني أجنحة جمعتُها من شتات الأيّام وخيبة الأمل، ومن كلّ تجربة وخبرة.

هذه الـ«أنا»، اللغز المتحوّل أبدًا يبحث عن ذاته ويحاول أن يفتح بابًا جديدًا حالمًا يُقفل باب الماضي المستريح.

تُراني أنجح؟...

عند كلّ بدء لا بدّ من طرح السؤال. وحين ألتفت إلى خطواتي العالقة بتراب الطريق، أبصر هناك بصمات كثيرة، كلّها تشير إلى بدايات ونهايات.

وأسأل نفسي هذه المرّة بكثير من الجدّ:

أين البداية الحقيقيّة؟ وأين هي النهاية؟...

الفصل التاسع عشر

1

وحنان لا تتوقّف عن طرح الأسئلة. وَجَدَت، في الأكواخ «المشرورة» على شاطئ بيروت، مادّة تغذّي خيالها: – تظنّين سوف يأتي يوم يزيلونها من هنا؟ هذه الأكواخ أعني.

قلت لها:

– لا أدري. الحلّ والربط ليسا في يدي. هناك مسؤولون يعملون على إعادة ترتيب البيت.

– ولكنّ هذا البيت مملوء بالبؤس والفوضى ولن يستطيع مسؤول واحد أن يحقّق المعجزة. إنّنا بحاجة إلى قوى خارقة. ربّما إلى آلهة تهبط من كواكب أخرى، هل تسمعين يا مها؟

كنت أسمعها وأصمت. أسمعها وأرصف الصحون والكؤوس فوق المائدة.

دعوتُها إلى تناول الفطور، فلبّت ندائي، ودخلت تجرجر قدميها، وبقيَت في عينيها ظلال الأكواخ، أعلام البؤس والاقتلاع.

– ها نحن معًا من جديد.

قالتها، وكأنّها تكتشف حدثًا هامًّا.

ثمّ أَردفَت:

– كم سنة مرّت، بين لقائنا الأوّل واجتماعنا اليوم؟

أجبتُ من دون تفكير:

– ربّما عشرون سنة... لماذا تسألين؟

– مجرّد خاطرة مرّت ببالي. أحيانا يتجسّد الزمن ويصبح شيئًا، وفي معظم الأوقات يتحوّل إلى زئبق وينزلق من بين أصابعي.

– والآن، كيف تشعرين به؟ أعني الزمن؟

– الآن هو واقف هنا، فوق جناحي هذه المدينة الغالية، يترقّب، ينتظر، يحرّض أو يستغيث... الآن أشمّ رائحة الخيانة تعبق من بين ثدييّ، من خلال شعري وتنطلق مع الرياح الهادرة في زوايا الأرض. أنا مسافرة اليوم، تذكرين؟

– أذكر يا حنان، ولا ضرورة إلى تلك القسوة في محاسبة النفس. إنّك مثل معظم الناس تفعلين ما تمليه عليك سوانح الحياة.

– هذا ليس جديدًا علي... أوَلن يأتي يوم، يا مها، أملي أنا على حياتي ما يجب أن يكون؟ أجيبيني يا صديقتي، وأريحي بالي. أجيبي قبل أن تحملني الطائرة المجهولة وتُعيدني إلى قحط الصحراء، وبلاد الصقيع والضباب.

– قبل أن تُعيدك إلى أحبائك. لماذا لا تفكّرين في ذلك؟

– والأحباب تغيَّروا. ولم يعد هناك سوى اليأس. هل تدركين في أيّ مأزق أعيش؟ الأولاد يكبرون، يغتربون. كلّ يوم يبتعدون مسافة جديدة. ورفيقي إختار دربًا موازيًا لدربي، والخطّان المتوازيان لا يلتقيان... لم نعد نلتقي إلّا للمناقشات الحامية، وصبّ الغضب. وتلك التي كنت أبكي فوق راحتيها لم تعد تسمعني. إنّها تعيش، مثل النبات، من دون ردود فعل أو شعور.

صَمَتَت حنان لحظة، ومَدَّت يدها إلى «ركوة» القهوة، سكبت منها فنجانًا راحت ترشف قطراته ونظراتها الحالمة تعبر الزجاج، تخترقه لتحطّ على جدار البناء المقابل.

تَحَرَّكت شفتاها وحدهما:

– رشفة وداع من قهوتك اللذيذة يا مها. كلّما سافرتُ أحمل معي بعض البن المطيّب بحب الهال، وحين أغليه في ماء الغربة يتبدّل طعمه. أَتراه الماء أم الجوّ؟ ماذا تقولين؟

– إنّه المناخ. شمسنا الرائعة تذرّ الطيب على كلّ طعام وشراب.

– لا، يا مها. المسألة أكثر من شمس وهواء. إنّها الذكريات والأحاسيس المعشّشة في خلايا الذات، في شغاف القلب، المتآلفة مع ذرّات الهواء، حتى مع غبار الأرصفة. لا شيء يُعيضُ الإنسان من هذه الأشياء الحميمة، ومن أشياء

أخرى تُضاف إليها وتُسمّى «الوطن»... وها أنا أدفع خطواتي إلى مغادرة هذا الوطن. هل تقدّرين معنى ذلك، أنت اللاصقة هنا، الممزوجة بكلّ ذرّة تراب، بكلّ نسمة هواء؟... أنت الهائمة خارج قفص الحنين والأشواق؟...

ماذا أقول لحنان؟ هل أعي واقعي؟ هل أقدّر هذه النعمة؟ بماذا أجيبها؟ وهل أستطيع أن أصبّ في راحتيها نارًا تأكل قلبي؟ كيف أبلغها أنّ بقائي، هنا، هو عزائي وعمادتي في مياه النار؟

أقول لها ذلك لأزيد ألمها وتقريع الضمير؟...

حنان الغالية!

فَصَّلتُ الصمت، ونهضتُ أتشاغل بجمع الكؤوس، والأطباق... العمل المنزليّ يتحوّل أحيانًا إلى منقذ.

2

من طرف عيني لمحتها، جامدة في مكانها، رأسها بين يديها، وأفكارها شاردة. وشعرت باللحظات تنزلق بسرعة، وتحملها على متن الطائرة، تاركة خلفها الحسرة، الدار المحروقة والوطن المنهار، وحفنة ذكريات وقناطير من الندم...

– لماذا لا تذهبين إلى الحمام؟ الماء ساخن، وهذه نعمة لا تتوفّر لنا كل ساعة. بعد الحرب صرنا نقتصد في كلّ الأمور، خصوصًا في الماء.

وهَزَّت كتفيها:

– ما همّ، أستحمّ في لندن. أمّا الآن، فلا أَوَدّ أن أُفرّط بلحظة من وقتي معك.

– ولكنّي سأنشغل بغسل الصحون. هيّا، ولا تضيعي الوقت بالأحلام.

– بل بمراقبة الواقع. سوف أساعدك في غسل الصحون.

– أنتِ؟!

قلتها وضحكت. لم أقدر أن أتصوّر حنان أمام المجلى.

صديقتي عاشت عمرها كلّه فوق قمم الرفاه.

وأصرَّت:

– سوف أريك أنّي ماهرة في الجلي، وفي كثير من أعمال البيت.

قلت وأنا أدفعها خارج المطبخ:

– ولا أتمنّى لعينيّ أن تبصرا هذا المشهد.

– إنّك لا تصدّقين قولي. وتعلمين أنّ أفشل خادم يقوم بالمهمّة خيرًا منّي؟ بعض الثقة يا صديقتي!...

– يا حنان، أنتِ غير مدرَّبة، ولا أريدك أن «تتعلّمي البيطرة...» الآن.

ضحكنا معًا. واقتنعت حنان بالذهاب إلى الحمّام ريثما أُنهي عملي في المطبخ.

3

في البدء لم يكن الانتقال إلى العمل المنزليّ سهلًا. يداي لم تمارسا هذا العمل منذ أن غادرتُ القرية. وكانت أناملي مكتفية بالقلم والورقة. لذا لم تمرّ فترة التدريب بسلام: كسرتُ عددًا لا بأس به من الصحون والكؤوس. وكلّما حدث ذلك كنت أعزّي النفس بقول جدتي: «لولا الكاسورة ما عمرت الفاخورة».

وإن كان ما يُكسر ليس فخّارًا. وحتى أتخلّص من آثار «الجريمة» كنت أخفيها في كيس متين، أُحكم ربطه ثمّ أطرحه في برميل النفايات... وأتظاهر الآن، أمام حنان، بأنّي أفضل منها في التدبير المنزليّ.

ربّما صرت أفضل منها بسبب الحرب. لقد زربتني الحرب بين المطبخ، والمشغل. ولم أعد أخجل من عرض لوحاتي على أولادي. بل صرنا نمضي ساعات القلق والخطر في رسم اللوحات، وعلى كلّ ما تيسّر لنا من مواد.

رسمت لأطفالي لوحات تفرحهم، عن الشمس والربيع والفراشات. رسمت لهم العصافير المذعورة بين أشجار الكينا المجاورة للمنزل. ورسمت قططًا شرّدتها الحرب، ووجوه الأطفال الصغار الذين تدفّقوا على حيّنا من كلّ صوب. مئات الأطفال، يجلسون على حجارة الرصيف، من شروق الشمس حتى غروبها. لا سلوى لهم سوى الجري على مساحة الرصيف، أو اللعب بحجارة الحدائق المجاورة، حتى إذا اشتدّ القصف هربوا إلى الملاجئ يحتمون فيها من الويلات والشظايا المدمّرة.

كنت أراقبهم من نافذة المطبخ، ومتى فرغت من عملي، أنصرف إلى رسم وجوههم من الذاكرة، وجوههم الجميلة المشرقة كالشموس، شعرهم

المشعث، وعيونهم المذعورة. أكثر ما كان يستوقفني ذلك الذعر في العيون الحائرة، ذعر من دويّ القنابل، ومن الاغتراب والهجرة. وكانت تحيط بهم أمّهات ذابلات، أمّا الآباء، فقلّما يظهرون. ويبقى ذلك الفراغ الرهيب في حياتهم: فراغ التهجير.

ظلّت ابنتي الصغرى «رلى» أقرب الجميع إليّ، فراحت هي ترسم بدورها، ولكنّ أطفالها وفراشاتها وعصافيرها كانت تزهو بالألوان، وترقص فرحًا. وكانت تبرهن لي مع كلّ ضربة فرشاة عن مقدرة الطفولة على صدّ هجمات الحزن، والمناعة القويّة العامرة بها صدور الصغار ضدّ كلّ موت وخراب.

وأنا، لا أدري ما جرى لألواني أيّام الحرب. صرت أمزج الألوان فيتدخّل سحر اللحظات الخطرة ويقلبها إلى عكس ما توقّعت. اختفى كلّ زهو وبريق، وبقيت لي الألوان القاتمة، بينما استطاعت رلى أن تحتفظ بكمشة السحر في قبضة يدها.

قال نادر وهو يتأمّل اللوحات المتراكمة في زاوية المشغل: – عندك مجموعة تستحقّ العرض.

جفّلني كلامه فرددت فورًا:

– لا يا نادر. هذا الرسم لا يخصّ الآخرين.

وتابع:

– ليس هناك فنان لا يهتمّ بآراء الآخرين مهما بالغ في إنكار الذات.

– وأنا لست فنانة. إنّي أرسم مصادفةً، حتى لا أغرق نهائيًّا بين الطناجر وأجران الغسيل.

– لا تلومي أحدًا. أنت اخترت الوضع الجديد.

– وأنا لا أحمّلك اللوم. ولست نادمة. إنّما أتساءل لماذا لا يكون العمل المنزليّ جذّابًا؟ أوَيصبح كذلك بمشاركة الرجل؟

– ومن قال لك إنّي لا أوافق. أنا مستعدّ لأن آخذ عنك مهنة الطبخ.

– وعندها نهرب من البيت ونلجأ إلى أقرب مطعم.

– أرأيتِ؟ أنت لا تثقين بي. جرّبيني مرّة واحدة.

– ومن أجل هذه التجربة يجب أن تضرب لي موعدًا، حتى نلتقي؟...

ومع أنّي حوّلت الموضوع إلى قناة الهزل، فإنّ نادر ظلّ جادًّا. وصار يغتنم فرصة وجوده في المنزل ليساعدني، قدر إمكانه.

أشياء كثيرة تَبدّلَت في حياتنا خلال الحرب.

جرّبنا كلّ شيء في سبيل البقاء، اقتصدنا، عشنا من دون خبز، عدنا إلى الشموع ومصابيح الكاز. احتملنا حرّ الصيف بلا تبريد، وأحيانًا بلا ماء...

أسابيع مرّت علينا وقساطل المياه جافّة. ونحن نجري مع أهل الحي إلى أقرب بئر لنملأ السطول والزجاجات بما يكفي لحاجاتنا الضروريّة.

وكان ذلك كلّه يهون أمام «القصف العشوائيّ» حين كانت القنابل وشظاياها تهبط علينا من كلّ سماء، فلا ندري أين نهرب، وكيف نخبّئ رؤوس أطفالنا. المدينة تحوّلت إلى أتون ملتهب.

4

وحنان تستحمّ الآن بماء ساخن. عادت النعمة إلينا، المياه تجري في الأنابيب. حتى المياه الساخنة صارت متوفرة، وهذا ما دفع رلى إلى التعليق: – نحن أغنياء يا أمّي.

وسألتها:

– ماذا ترين من ظواهر الثراء؟

فأجابت:

– صار عندنا ماء وخبز وكهرباء... أمّي صار عندنا خبز كلّ يوم.

عصرت كلماتها قلبي، وعدت إلى نفسي أفكّر:

– كان علينا أن نمرّ بهذه التجربة، ليقدّر أولادنا النعمة التي عاشوا في ظلّها سنوات. كان كلّ شيء يصلهم من أسهل الطرق. الماء، الخبز، الكهرباء، وكلّ ما توفّره حياة المدينة من رفاهية... خلال الحرب ذاقوا طعم الحرمان، وسيبقى هذا الطعم عالقًا في ذاكرتهم مدى الحياة.

قطعت عليَّ تأملاتي صرخة حنان آتية من الحمّام:

– عندك يستطيع المرء أن يأخذ حمام شمس. أيّة نعمة تنصبُّ عليكم!...

كانت شمس الصباح تتسلّل من نافذة الحمّام، تملأُه بوهجها وتسكب دفئها على الجسم العائد من صقيع الغربة. وفكّرت أن هناك حرمانًا آخر غير حرمان

الفقر، وما تخلّفه الحرب من دمار. إنّه حرمان الطبيعة الذي تعيشه حنان في غربتها، وحرمانها من شمسنا السخية وأجواء الصحو.

وجاءني صوتها من خلف الباب:

– إنّها نعمة، وأيّة نعمة! هذا الحمّام وحده يغري المرء بالبقاء هنا.

– لا تستهلكي الماء كلّه. ما زلنا نعيش في مرحلة التقنين.

خرجَت تلفّ جسمها بثوب الحمّام، والبِشر يطفح من وجهها، وكأنّها غسلت مع الماء كلّ ما علق بنفسها من ألم وضياع.

قلت، مثنية على كلامها:

– إنّها نعمة كبرى يا حنان، وإنّنا نعرف قيمتها في كلّ لحظة. حتى الأطفال يعون ذلك، ويقدّرون معنى قطرة الماء. خصوصًا إذا كانت تصلنا عبر المصنوعات البشريّة، ولا نرشفها طازجة من رأس النبع.

لقد كشفت لنا الحرب زيف المدنيّة وانهيارها أمام أوّل هزّة تضربها... أعادتنا الحرب إلى الينابيع الأصليّة، وحمّلتنا جرار الماء فوق ظهورنا إلى الطوابق الشاهقة، فوق ناطحات السحاب.

قاطعتني حنان:

– حتى هذه أغبطكم عليها. تعب الجسم راحة. لكن ماذا يفعل الإنسان حين تبدأ المطرقة الفولاذيّة تطرق بوابة الضمير؟... هاه. أخبريني يا مها؟

– لن اقول شيئًا يا حنان. كلٌّ منّا تعذّب، وذاق من الألم ما يكفيه لعدّة أجيال مقبلة، ولا لزوم لتحمّلي نفسك المزيد من العذاب... يا حنان، نحن لم نَدْعُ آلامنا، لقد فُرِضَت علينا فرضًا. ثمّ إلى أين قادتنا؟ قولي بربّك، إلى أين؟ اشكري اللّه على أنّك وفّرت على نفسك وعلى أطفالك المرور في أتون التجربة القاسية التي انتزعت منّا كل فرح وحلم...

شهَادة... (ب)

الأتون

من 15 آذار حتى 8 حزيران 1976

1

أحمل آلامي سلاسل ثقيلة،
أحمل آلام شعبي ووطني،
أسهر وأقلق،
وأحيانًا أهرب على متن غمامة
أهرب مع الأحلام.
نعم سأظلّ أحلم،
الأحلام هي البوابة الوحيدة البعيدة عن أيديهم
لن يستطيعوا إقفالها في وجهي،
وأظلّ أبني قصورًا بين الغمام.
أدعو إليها الأحبّاء المتعبين
وأدعو إليها كلّ من جَرَّحَت قدميه
أشواك الطريق.

2

يزرعون دروبنا بالقلق

يزرعونها بالشكّ والخيبة.
يدفعوننا لنسير فوق الشوك.
أقدامنا حافية، وأجسادنا ممزّقة،
مثل جسد هذا الوطن البائس
يزرعون دروبنا بالقلق
ويجعلون في أيدينا مناجل الحصاد.
كم عليك، أيّها القلب المضنى، أن تصبر!
كم عليك، أيّها الشعب البائس، أن تحمل من آلام!
يا شعبي!

3

فنانة لجأت إلى داري

مثل عصفورة روّعها رصاص القنص
تحمل زغاليلها وتبحث عن ركن أمين.
أيّتها المرأة الشقيّة
إلى أين يهرب الإنسان من قدره؟
إلى متى يستطيع العصفور الصغير أن يخدع القنّاص؟
جوابها:
سأواجههم، واحدًا واحدًا
أحمل أطفالي فوق راحتيّ،
أنتقل فوق أشلاء هذه الأرض الغارقة في الحداد
أحملهم، أمل الغد، وبذرة المستقبل الواعد
أواجههم بعينيّ المقرّحتين، بدموع سكبتها ولم تروِ الظمأ.
بجبيني المشرئبّ أبدًا إلى العلاء
بكبريائي وشموخي.
أواجههم بإرادة الحياة.
سأحيا، وأولادي يحيون.

وهذه الأرض أرضهم، لهم ولأمثالهم من الأبرياء
فوقها يركضون نحو الأيّام المقبلة،
مثل فقاقيع الفرح،
ويحوّلون وجومها إلى «هيصة» أعراس
أنا:
لم أكن أعلم أنّ العصفورة تحوّلت إلى نسر، وأنّها مدَّت جناحيها فغطَّى ظلّهما وجه الكون.

4

صديقة تهتف لي من الطرف الآخر من بيروت
صوتك يأتيني، مع الليل،
أيّتها السجينة خلف جدار الحقد والانقسام
يأتيني عبر الهاتف هامسًا،
فأشعر كم هو كبير حجم الكارثة!
الطُّرق بيننا مقطوعة
الأبواب موصدة
والقلوب وحدها تقوى على الرحيل،
وتظلّ مفتوحة، لبشائر المحبّة والأمل.

5

يرتمي الجسد منهكًا
والفكر يجول في صحراء القلق
كلّ ما يحيط بنا صامت بارد.
الصقيع يغلّ حتى النخاع
والخيبة تطفح من عيون الأطفال.
ألن يُكتبَ لهذا الشعب أن يقف
ولو مرّة واحدة، وقفة بطولة؟

أوَلن يكتشف، ولو بعفوية الإنسان البدائيّ،
من أين يبدأ تحطيم الأغلال؟

* * *

يرتمي الجسد فوق السرير خائرًا
وترحل الأحاسيس في مدى الكون،
والكون صحراء مقفرة لا لون فيها، ولا نغم.

6

أمٌّ لقيتها في الشارع
هي:
كان علينا أن نفعل ذلك
كان علينا أن ندبّر له الرحيل
ترين، كبير إخوته هو،
سند العائلة وبكر أولادي
كان عليّ أن أنقذه، فقذفته إلى ما وراء البحر
أنا:
من زمان بعيد،
وأمّهات لبنان،
والأمّهات على امتداد هذا الشاطئ الأخرس،
يقذفن أبناءهنّ إلى البحر.
أعرف نساء غيرك، ومن زمان غير زمانك،
قبلك كانت جدّتي، وقبلها أمّها، ثمّ أمّي،
مشتل الإنسان هذا الشاطئ
ويد الغارس تختار أفضل الشتلات وتقتلعها،
ثمّ تقذف بها إلى المجهول.
هي:
كان عليّ أن أفعل ذلك من أجل حياته

رفاقه ماتوا في الشارع
ماتوا فوق الرصيف.
بلا سبب، بلا قضيّة
رصاص القنص، تعرفين، شظايا طائشة.
ذهبوا، ضحايا الطيش، والبطر الحاكم، الآمر.
كان عليّ أن أمزّق القلب، لأُنقذَ إحدى فلذاته.

7

في الحيّ الغربيّ
ابني يسأل:
لماذا؟
لماذا يندلع الرصاص؟
ينهمر كالمطر فوق رؤوسنا؟
ابني يصرخ، ينادي:
يا أمّاه! أسرعي وانظري.
أولئك الرجال ماذا يحملون؟
ابني يسأل
وصوت المصلّي يرافق الأزيز،
وفتى لم يطرَّ شارباه،
محمول فوق أكفِّ الرجال
منقول إلى المقرّ الأخير
شهيد.
وتزغرد النساء، وترقص إحدى الصبايا رقصة الموت.
ابني يسأل:
لماذا يرجعون يا أمّاه؟
الموكب ذاته، والرجال هم هم؟
لماذا يرجعون؟
وهذه المرّة من تراهم يحملون؟

شاب آخر
فتى آخر
شهيد.
هذا اليوم امرأة قبيحة
حبلى بعشرات الجثث
هذا اليوم، وحش أعمى،
يلعق دماء الأبرياء، ويلحس شفتيه بنهم.
هذا اليوم، نار ودمار
صراخ أرامل، وعويل ثكالى.
والغيمة السوداء تتصاعد من لهب الحرائق
وتبسط جناحيها فوق بيروت
تمطر السمّ على من بقي في المدينة
والمدينة الحزينة، اسمها بيروت
تلفظ آخر ما بقي لها من عافية ومناعة.

8

في الحيّ الشرقيّ
عبر الخط الهاتفي يأتيني صوت الصديقة
مع بزوغ الشمس:
«أخشى أن يُقطع الخط وأفقد الاتصال بكم
أخبريني، ما حلّ بكم؟
نحن هنا لا نزال بخير،
وحتى إشعار آخر.
خيمة الرعب تمتدّ،
تبسط جناحيها فوق رؤوسنا.
خيمة الرعب والدخان.»
وصوت الصديقة يسأل،
يريد خبرًا شافيًا.

كلمة، تفتح باب النهار الجديد
وأنا، كلّ ما عندي تمنّيات
أطلقها في الفراغ
وعندي كلمات تقليديّة
أدعية وصلوات،
تعفّنت فوق اللسان
وعندي قليل من الصبر.
وصوت الصديقة يلحّ بالسؤال: «أنتم بخير؟ ونحن نقفل الأبواب في وجه الشمس
ونعيش في ضباب الشكّ والألم.
وكلّ ساعة تدقّ أجراس الكنائس حزنًا،
ضحيّة جديدة
شاب سقط في ساحة القتال.
والرجال يحملونه فوق الأكفّ
وفوق نعشه يزغرد الرصاص:
شهيد.»
الصورة هي هي، تُرسم بالصليب أو بالهلال
والضحايا يتشابهون
ودماء الشهداء، من كلا الجانبين،
تلتقي تحت التراب
تتشابك وتتلاحم
وتطلع للأجيال المقبلة شجرًا لم تحلم به عرائس الجن.
ولا اشتهته الأمّهات.
في أشهُر الوحام.
تُنبت شجرًا جديدًا
للمواسم الجديدة
وتُنبت أجيالًا من أجل الحياة.

الليل سبايا ذات شعر طويل.
خيمة جديدة من خيام الرعب
تفرش جناحيها فوق المدينة
فوق الساحل والجبل.
وتفتح بطنها للرصاص والقذائف.

10

مررت اليوم في شوارع المدينة

رأس بيروت بطّيخة،
سقطت من يدي طفل غشيم
تفجّرت، وسالت دماؤها في كلّ زقاق.
يا رأس بيروت!
أيّتها الزاوية المغرورة!
كنت تعتقدين أنّك خدعتهم وهربت.
لملمت سراويلك الفضيّة، الذهبيّة الدمقسيّة،
لملمت جواهرك وهربت.
وإذا بهم يصطادونك في قلب الصحراء.
هذه تماثيلك المنهارة
ومبانيك الشامخة، تنطرح في عرض الشارع،
والزجاج المتناثر يزيغ الأبصار.
زجاج ملوّن، زجاج محطّم،
بقايا رأسك... يا بيروت!

11

سرت في الشوارع

الرصاص يلعلع فوق رأسي

والقذائف بطاقات، تحمل تحيّات الشياطين.
قيل لي: إنّهم يجربون أسلحتهم عندنا،
أولئك المتقدمون في الحضارة.
حوّلوا ديارنا إلى بركان.
قيل لي: الوطن صار مختبرًا
والإنسان تحوّل إلى جرذ
وها إنّي أبصر الحقيقة بعيني.
وأحاول أن أضع إصبعي موضع الجرح
ويخبرني الطفل الأشقر أنّه نجا من الموت: «كانت القذيفة كافية لإبادتنا جميعًا... عيارها 155»
الطفل يعرف حجم الكارثة
يقول لي: «كنّا أُبِدنا لو انفجرت ولكن...»

12

سرقوا الحلم والبراءة من عيون الأطفال.
سرقوا من عيوننا النوم، ومن بالنا الطمأنينة
والليل يزحف فوق أجسامنا المنهكة
ويندسّ في أعماق الروح.
أحاول أن أطرد النعاس
لا أريد أن أموت مغمضة العينين
أودّ لو أموت مثل شجر الحور.

13

أعدّ اللحظات الفاصلة بين الطلقة والطلقة،
هكذا يكون ألم المخاض
تعلّمت أنّ الصمت لا يعني النهاية
الصمت هدنة المقاتل

ليحشو قذائف جديدة في فوهة المدفع
أعدّ: واحد، اثنان، ثلاثة،
وتنهمر «التحيّات» من جديد.
ومع كل طلقة يقفز القلب هلعًا
بين الطلقة والطلقة، فترة انتظار حُبلى بالعقم واليباس
ليس في الأفق نجمة واحدة
تبشّر بولادة جديدة.
والليل يمتد أطول من الأبد...

14

يوم آخر من الرعب والدخان

يوم آخر من أيّام القيامة.

15

يلتفّ الدخان مثل طائر جهنميّ
ويرتمي فوق وجه البحر،
والماء ينفث سمًّا واختناقًا
أودّ لو أمحو هذا اليوم من الذاكرة
أودّ لو أمحو سنة من عمرنا،
لأزيل القبح والهمجيّة.
القذائف تتطاير في سماء بيروت مثل الطيور المذعورة
«وتخبط المنايا خبط عشواء»
ويتحوّل العمران إلى قفر يَباب.
الليل يزحف فوق المدينة مثل وحش مجنَّح بالدخان
مرفأ بيروت يحترق
غذاء المدينة يحترق
ويتحوّل الترياق إلى سمّ

أين يهرب الإنسان من هذا الجحيم؟
وبحر بيروت يقذف اللهب.
الرعب يزحف مع الدخان،
أُخبّئ أطفالي في عُلَب مقفلة،
أغلّفهم كي لا يتسرّب إليهم دخان الحرائق
وصوت الإنذار يمزِّق صمت الليل: «إلى الملاجيء
أخلوا الطوابق العليا،
سجّلوا هذه الأرقام للإسعاف...»
صوت الإنذار يتحدّى دويّ القنابل
وأنا مسجونة داخل قفص الرعب
في غرفة من بعض مساكن المدينة
وأنا لا أودّ أن أخرج،
وأصبح واحدة من ألوف المشرَّدين...

16

الصوت ينادي،
الموت ينادي، والأنوار تهاجر من ليل المدينة،
عطل طارئ في أسلاك الكهرباء،
من يصلحه؟
أَعدُّ أصداء الانفجارات لأبقى واعية.
صرت أميّز بين أنغام القذائف: واحدة تئزّ، والأخرى تصفّر، وثالثة تنفجر من دون إنذار.
سأبقى ساهرة
لن أدع اللصوص يدخلون.
ولكن!
ها هم قادمون.
لا تخيفهم الانفجارات والصواريخ،
والرصاص، عندهم، ملبّس يُرشّ في يوم العرس.

جاؤوا، بكلّ الأسلحة والعتاد، يسرقون السيارات،
يحطّمون المخازن وأبواب العمارات...
يتسلّقون الجدران والأسوار، مثل الجراد الزاحف...
يا بيروت: طوبى لمن لا يملك قشّة مكنسة فوق أرضك!..
طوبى للمساكين في الجيب!...
طوبى لكل من يستطيع الوصول إلى الأرض،
ليحفر فيها حفرة تتّسع لقامته!
جاؤوا، عند انتصاف الليل.
والليل رهيب.
كواسر المدينة، يبحثون عن فريسة، عن صيد ثمين.
والحارس المسكين يختبئ كجرذ
ما قيمة السيارة والفرش والمخازن؟
أيّها الحارس،
انجُ بنفسك،
آجلًا أم عاجلًا، سوف يسرقون،
ولن يفيدك السهر والإخلاص.
كواسر المدينة، نبتت لها أنياب وأظافر من فولاذ.

17

«حرب إبادة بين بيروت الشرقيّة وبيروت الغربيّة»
عنوان صحيفة «النهار».
معارك وحرائق، وصور ما تبقّى من «القصر».
وأخبار انقطاع الطحين.
نسينا الجوع والخبز، والحاجة إلى الغاز والمازوت،
ننتظر فقط، طلوع الشمس،
لتمسح الدخان من سماء بيروت
وتمسح الدمع من عيون الأطفال
طفلي ينهض من سريره،

بدل تحيّة الصباح يقول،
«لا نزال أحياء... أمّي، هل تصدّقين؟»
أجل يا بنيّ، نحن أحياء.
أعضاؤنا لم تبتر،
الانفجار ظلّ خارج جدران البيت.
وشجرة «الميموزا» تتفتّح، وترشقنا بتحيّة صفراء.

18

أصغي إلى أصداء الانفجارات،
أميّز بين ما يأتينا من الشرق وما ينطلق من الغرب.
سمعت اليوم صوتًا مختلفًا.
هكذا كنت أيّام هدوء البال
أصغي إلى زقزقة العصافير،
وأحاول أن أكتشف «الضيف» الجديد في السرب...
الجميع نيام
رؤوسهم مسندة إلى الجدار
الأجسام تنحشر في الزاروب الضيّق.
فلذات كبدي...
ويتجوّل القلب بينهم كلّما هزَّه انفجار جديد.
وأتمنّى لو يتحوّل هذا القلب إلى ملجأ،
لو تصبح يداي جناحي فراشة لأحمل أحبائي وأطير!

19

المذيع يعلن من لندن:

«آلاف اللبنانيين، يفرّون على ظهور الزوارق.
ركبوا فوق البضائع،
مثل قطعان الغنم، حملوهم.

ساقوهم إلى المجهول.
وينفتح باب التشرّد والهجرة
ويتجدّد نزف الجراح!»...
وصوت المذيع من بيروت،
يعلن عن احتراق مخازن جديدة.
ملايين الليرات تحترق،
ونحن نشمّ رائحة الحريق.

20

صوت الصديق من الطرف الآخر:

«طمّنونا عنكم.
انفراج نسبيّ»...
وصوت الصديق يروي المأساة:
«أبي الكاهن عاش اليوم تجربة عمره.»
وأبوه كاهن عجوز
جاءه رجل، مع بزوغ الفجر،
يحمل كنزًا داخل الكيس:
ابنه القتيل
يحمله في كيس قماش،
ليُصلِّي عليه...
والأب المفجوع لم يبكِ،
احترقت دموعه إلى الأبد.

21

وصل الحريق إلى الجبل

والقصف يهزّ المساكن والقلوب

وصفّارات الإنذار تصمّ الآذان...
سيارات الإسعاف تنقل الضحايا
وأنا أفكّر في الرحيل،
إذا أشرقت شمس يوم آخر.

22

أُخمد الحريق، وهدأ الجو.
أخرجت رأسي من النافذة وأبصرت الربيع الحزين،
ضيفًا على الحديقة المجاورة.
ونور الشمس، مثل قنديل نفد منه الزيت.
مساء هذا اليوم كانت المفاجأة: مُسلّحون أوقفوني على باب المنزل
عيونهم على سيارة الصديقة:
«هويتك»...
يا للخزي والعار!
«تطلبون هويتي؟
تفضَّلوا اشربوا فنجان قهوة.
أنتم على باب داري.»
مسلّحون ملثّمون
يخفون وجوههم خلف الأقنعة،
ليجرؤوا على رفع الصوت.

23

أخبار الرحيل ترفّ مثل الفَراش.
الرحيل بين المنطقتين، وعبر البحر إلى الخارج.
الطرق فارغة، لا يمرّ فوقها سوى سيارات الحرب.
وأخبار «مونتي كارلو»:
«لبنان يحتضر، ولا يجد من يسأل عنه.»

24

كلام عن وقف إطلاق النار

أو تجميد القتال.
وكلام آخر عن الخطف.
أخبرنا صديق كيف خطفوه،
ساقوه إلى حدود المقبرة، أوقفوه إلى الجدار،
ورفعوا البنادق.
الصديق نجا بأعجوبة.
مرّت سيارة مسلحين وهرب الخاطفون،
تركوه حيًّا،
بعدما خطفوا السيارة.
وزائر آخر، عائد من الخندق
يصف حياته في المعركة:
«عشرون يومًا في الخندق.»
– تحارب مَن يا يوسف؟
– كنا نحارب أشباحًا، أناسًا بلا وجوه.

25

الحقائب المحزومة مشهد مألوف.
الأطفال يسافرون،
الكبار يهاجرون،
وأعيننا تشهد ولا تصدق.
وطبيب المستشفى يخبرني بحزن حكاية الأجساد المشوّهة،
والجرحى المعذّبين.
وثمّة راهبة، تتصل من أقاصي الجنوب، لتقول لي: – إنّ الربيع عاد إلى الجبل.

أيّتها الأخت الطيّبة،
ربيعنا لم يصل.
قتلته رصاصة قنّاص.

26

الصحف تنقل إلينا المزيد من أخبار القتال.
لم يتوقف القصف على الرغم من قرارات وقف إطلاق النار. وهذا يعني المزيد من الضحايا: القنص، الخطف والنهب...
ونحن نعيش في هذه الدوّامة المحمومة، ونبحث مع الأصدقاء عن وسيلة للخلاص... لإنقاذ الجسد على الأقل.
ويؤكّد الرئيس أنّه لن يستقيل، إنّه يحافظ على الشرعيّة، و«دين براون» يتابع تنقّله بين الزعماء.
أشعر بأنّ ثقل الكون يرزح بين كتفيّ، والدوار يفجّر رأسي. أنا محاصرة، مع عائلتي، مع أولادي وكلّ الجيران والأحبّاء...
ورفيقي يؤكّد: أنّهم يضيّقون علينا، يحصروننا في مكان ضيّق لتسهل عليهم إبادتنا.
وأعود إلى كتاب التاريخ، فأقرأ فيه عن هذا الصراع الذي يعيد نفسه مرّة كلّ بضع سنوات. والتاريخ يقول لنا: إنّ هذه البقعة من الأرض لم تعرف الاستقرار منذ آلاف السنين!...

27

تمطر.
ينهمر المطر مثل رذاذ الفرح النادر.
المطر الربيعيّ الخيّر يطرد الذباب من الشوارع، والغبار عن أوراق الشجر.
صوت رجل غريب يتّصل، يخبرنا عن الأصدقاء في الجبل. وصوت القريب يأتي من جبل آخر، كئيبًا مثل الغيوم.
وأفكّر: لا مكان يحتوي الإنسان بحنان مثل هذا الركن الصغير الذي هو بيته.

وأتساءل: من يحصي عدد مشرّدي الحرب؟

وجمعيّة المشوّهين تعلن: ازداد عددنا أربعين ألفًا، أصبح في لبنان مائة ألف مشوّه.

ومرضى «العصفوريّة» هربوا من الأبواب والنوافذ وهم يتصايحون: – اهربوا... اهربوا من طريق المجانين.

وجارٌ يُخبر أنّهم يقطعون شجر الصنوبر عند الطرف الجنوبيّ من العاصمة، ليحفروا قبورًا جديدة.

أخبار الموت تشرق علينا مثلما تشرق الشمس، ومثلما تطلع النجوم.

وصوت على الهاتف يقول لي:

– يسرقون «فيلّا» الجيران.. المشهد يستحقّ أن يُسجّل في فيلم. وصلوا الآن إلى الأبواب والنوافذ، يقلعونها ويحملونها معهم.

وجارنا المهندس يعود مع قصّة جديدة: سطوا على ورشة البناء، وحملوا أكياس الإسمنت وألواح الخشب.

– اخرجوا.

الناس يقذفون بأنفسهم في البحر.

أخرجوا قبل أن يلتهمكم الحريق.

28

رفيقٌ بي المطر

ينهمر من عيون الغمام. من عينيّ...

ينساب فوق خدّيّ، ويروي الجراح المنفتحة في أحشاء المدينة.

المطر، يغسل الغبار والخطايا.

رفيق بنا، يمدّ حبال الخلاص لنتسلّقها، ونهرب من جحيم بيروت.

29

وتصرخ بي الصديقة على الهاتف:

«أكاد أجنّ، أكاد أفقد الشعرة الدقيقة التي تصلني بالواقع... أين الخلاص؟...»
وأقول لها: «ما أحلى الجنون! تقيمين جدارًا بينك وبين العالم، وترتاحين. أو تبنين تلك الشرنقة المتينة، وتقيمين فيها فلا تتسرّب إليك الأنفاس السامّة»...

30

يقطعون شجر الصنوبر، ليحفروا القبور
شجر الصنوبر الباسق، المرفرف بآلاف الأجنحة،
الصنوبر الأخضر حول المدينة، لن يستحمّ بمطر الربيع.
وترتمي الأشجار مثل قطيع صعقه تيَّار مكهرب،
ترتمي الأشجار مغلوبة على أمرها.
ويركض الحفّارون في كلّ صوب،
في أيديهم المعاول والرفوش،
يركضون ليحفروا قبورًا جديدة،
تتّسع لحصيلة يوم آخر من أيّام الشيطان...

31

ويا بيروت!
أيّتها الثكلى آلاف المرّات!
عبثًا تحزِّمين رأسك، وتشدّينه بالرباط الأسود.
عبثًا تنوحين وتبكين على من فقدتِ من أبنائك.
لن يعودوا!
لن يطرقوا أبوابك، أو يهزجوا على أعتابك... يا بيروت!
رحلوا، ولن يعودوا!
ولم يبق لك سوى الحزن والرماد.
احزني حتّى قاع تاريخك!
حتى نهاية أيّامك.

احزني وشدّي شعرك واقرعي الصدر ألمًا وحسرة.
تلوّعي يا بيروت، ونوحي،
أعولي، ولتحمل رياح الشمال، والشرق والغرب والجنوب، صدى عويلك.
لتنقل صوتك المفجوع إلى أقاصي المعمور.
وحدك سيدة آلامك!
لن يسمعوك. لن يهرعوا لعزائك!
لن يحملوا آهة واحدة من آهاتك
وحدك، تشدّين الرباط الأسود حول رأسك،
وحتى مئات الأجيال المقبلة!

32

أنهضُ من قاع اليأس والهزيمة،
أحمل طفلي فوق كتفي، وأسير في الطرق الوعرة،
لم يتركوا دربًا إلّا سدّوه بحجر وبحزمة شوك.
وأنا الأمّ الحزينة،
أنهضُ لأنقذ أطفالي من نواياهم،
لأنقذهم من جنون الآلهة،
ومن هذا الحريق الراكض في جسد المدينة.
أنهض من قاع اليأس والهزيمة
أردّ طفلي فوق كتفي، وأحمل في يدي باقة زهر
أغرسها فوق قبر طريّ التراب لإنسان مجهول،
خرّ صريعًا، وهو يحاول أن يبحث عن هويّة له،
ولهذا الوطن التاعس.

33

يتغلغل حبّك في أحشائي مثل نصل السكّين
يؤلم كشفرة، يوقظ الوجع القديم.

حبُّنا، يعيش فوق رفّ الأيام الرماديّة،
نمرّ به، أيدينا متشابكة والعيون سارحة في البعيد.
وحبّنا،
صار عنّا غريبًا.
هذا الصباح، مددنا أيدينا إلى الرفّ المنسيّ،
وأنزلنا حبّنا، دعوناه ليقيم معنا،
ويأكل على مائدتنا،
وحبّنا، كان له هذا الصباح
طعم الملح فوق الشواطئ الذهبيّة،
ذكّرني بأنّ لنا معًا بقيّة أيّام،
لن يستطيعوا أن يسرقوها منّا...

34

الصبيّة المتّكئة على شرفة دارها
بماذا تحلم؟
زنبقة الفجر النديّة،
بماذا تفكّر؟
ماذا يخطر ببال ابنة السادسة عشرة
حين تسرّح نظرها في خرائب المدينة،
وتصطدم بألسنة الحريق؟
تراها تفكّر في المستقبل؟
في الأيّام الطالعة من قلب الظلام؟
في ساعات مرح يحملها الفجر الجديد؟
أودّ لو أستطيع الوصول إلى ما وراء العينين الخضراوين،
لأقرأ ما كتبته الأيّام المقبلة!

35

بيروت شوارع قذرة

وعيون الناس نوافذ مغلقة.

36

جسدُكَ المطروح مثل بساط مهلهل
تطأه الأقدام بلا مبالاة
جسدكَ الهرم، المهترئ،
المتخرّق بملايين القذائف والأصوات...
ينزف دماء سوداء
وحولك تعزف الموسيقى الغريبة
تدقّ لك نشيدًا جديدًا.
جسدك، هذا التعب المنهار
هل سيعرف القيامة، غدًا
يا وطني؟...

37

انفتحت عين النهار الجديد

سوداء، مغمّسة بالدموع.
شعور حزن غامض يعتصر نفسي،
ويشدّ صدري ويضغط.
رددتُ الغطاء فوق وجهي:
لا، لا أريد أن أواجه هذا النهار.
والشمس تنسلّ إلى داخل المنزل، شاحبة كئيبة.
لا أكاد أرفع الرأس حتى يلفّني دوار خبيث.
سرقت من النهار ساعة للراحة، ثمّ صار النوم مستحيلًا، فنهضت.

38

أيّة وحشة غريبة لهذا الليل!
القمر الكئيب يستعيد مجده
يحاول أن يبتلع ظلمة المدينة.
أيّة وحشة لهذا الليل الرهيب!
حيث يختلط دويّ القذائف بأزيز الرصاص،
وصرخات الأطفال!...
أيّة حماقة يرتكبها بنوك أيّتها المدينة التاعسة!
أيّة معصيات ارتكبتِ في زمانك الغابر
حتّى تستحقّي هذا العقاب؟

39

الأطفال يرتعشون رعبًا.
تلتفّ أجسامهم الطريئة في الزواريب الضيّقة
يحتمون بالجدران الصمّاء، يهربون من جنون القصف
يرتعش الأطفال ولا يفهمون لماذا!
لماذا يتقاتل الناس؟
لماذا يفتك الأخ بأخيه؟...
ومع ذلك يأتي النعاس،
فنودّع يومًا آخر من أيّام الشؤم،
وننتظر انبلاج الفجر الجديد.

40

موكب الشهيد يمرّ قرب داري
رفاقه يحملونه فوق الأكفّ.
يحمونه بالسلاح. يشكّون البنادق سياجًا حوله.

وهو صامت، لا يعي.
هو، الطفل البريء، الحمل الوديع،
لا يسمع تحيّاتهم الحارّة.
لا يسمع طلقات البنادق
ترسل له تحيّات الوداع.
موكب الشهيد يتوقف قرب داري
وتحترق الدموع في المآقي:
هذا ولدي، وأنا أمّه،
في مثل هذه اللحظة،
أشعر بأنّي أمٌّ لكلِّ فتى سقط شهيدًا
فوق أرض بلادي...
يا ربّ، سألتك من قبل أكثر من مرّة: لماذا؟... لماذا الأبرياء يسقطون؟

41

أمّه المسكينة تستقبلني بهدوء: كان يحبّكم.
أنتم خسرتموه.
نعم، يا أمّ الشهيد!
أقول لك بدموع عيني،
أحببناه مثل أولادنا.
أحبّه صغارنا وكبارنا.
تقول أمّه: «مات بطلًا».
ولم تخلع الثوب المبقّع بالدم
تركته «يخبّ» تحت ثوبها الأسود الجديد.
أمّه المسكينة، أيّ كلام يعزّيها؟
من يعيضها من بنيامين العائلة؟

42

ويطلّ أخوه مع الفجر،
وقد خلع وجهه قسماته الحزينة
وارتدى بسمة الظفر:
«لم يذهب أخي رخيصًا.
منذ يومين ونحن نقاتلهم،
كرمى لعينيه، هزمناهم عند مشارف المدينة.»
أخوه في ثياب القتال.
وثمّة بريق يطفر من عينيه،
يعيضه من الخبز والقهوة والدخان...

الرحيل

1

لملمت أجزائي المبعثرة، وحزمت الحقائب. كان علينا أن نغادر المنزل الساعة التاسعة صباحًا، وننتظر في المطار ثلاث ساعات، حتى موعد إقلاع طائرة «أثينا».

أيّة مدينة حزينة خلّفنا وراءنا؟ بيروت تحترق، وتختلط حرارة الربيع بنيران الحرائق، وتنفرش ألسنة اللهب في كل صوب.

الطريق إلى المطار خالية، حزينة. والمطار يعجّ بالنازحين من كلّ الأعمار، والأشكال والطبقات... لفت نظري شبابٌ افترشوا الأرض بجانب أكياس الخيش التي تنقل «عفشهم» بما فيه الفرشات وحرامات الصوف. قرأت على بعض تلك الأكياس اسم «السويد».

«السويد» تستورد العمال اللبنانيين! وقطع عليّ تأملاتي صراخ الأطفال.

تطلّعت أحاول الهرب من هذا الجحيم، ولكن إلى أين؟

البؤس يجثم في الزوايا، فوق النوافذ، في عيوننا، وقلوبنا، ونحن نحاول الهرب منه.

أخيرًا حان موعد إقلاع الطائرة وارتفعنا في الجو، من دون أن نشعر براحة الخلاص. كذلك لم يواجهنا هذا الشعور في مطار «أثينا»، حيث الجوّ بارد، والهواء منعش، والمضيفة تسهّل أمورنا، فترشدنا إلى فندق من الدرجة

الثانية، فندق «هيروديون». إنّه جديد ونظيف، يقع في حيّ هادئ عند أقدام «الأكروبول».

تذكّرت رحلاتي الماضية، وكيف كنت أدخل أبواب المدن الجديدة بفرح. و«أثينا» تفتح لنا ذراعيها، وشوارعها، وفضاءها الموشّح بالغيوم، لكنّ القلب بقي على حزنه، وظلّت الجراح تنزف. وازداد النزف حين التقينا أفواج اللبنانيين الذين سبقونا، وملأوا الفنادق وشقق الإيجار.

2

هَمُّ الوطن يرافقنا. نسأل من حولنا ليترجموا لنا أخبار المذياع، ونهرع إلى السوق بحثًا عن الصحف اللبنانيّة.

هذا الصباح ماطر وبارد. اقترح رفيقي أن نذهب إلى المتحف.

أدهشني تمثال مقطوع الرأس، وقفت أمامه طويلًا: ترى، هذه هي حالنا الحاضرة؟ وتاريخ التمثال يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

روّاد المتحف من كلّ الجنسيّات وأنا أسير بينهم مثل جثّة.

كنت أردّد صلاة واحدة:

يا ربّ، أعد إليّ حماستي. لا شيء يهزّني. لا شيء.

3

زيارة أخرى إلى متحف الفنون المعاصرة. لم أستطع أن أتابع التجوّل في ردهات الطبقة الأولى. عدت إلى الفندق أنشد الراحة. أنا بحاجة إلى النوم.

وظلّ الإرهاق رفيقي، والأيّام تمرّ رتيبة، بائسة.

ماذا نفعل هنا؟

4

الأولاد يطالبون بالنزهات، وجزر اليونان تنادينا.

أخيرًا قرّرنا الذهاب إلى جزيرة «إيجينا» أقرب الجزر إلى أثينا.

الرحلة البحريّة منعشة. وطبيعة الجزيرة تذكّرني بجبال لبنان. لكنّ أزهار الربيع هنا منتعشة، والحدائق تمتدّ على مدى النظر. ونحن، تركنا بلادنا تصارع الموت.

تمنّيت، ونحن نصعد الطريق إلى «سانتا مارينا» لو أستطيع أن أترجّل. أغادر البوسطة، لأعانق الطبيعة، لأشمّ رائحة التراب. كم اشتقت رائحة التراب!...

اخترنا مطعمًا يشرف على البحر، تمتّع الأولاد بركوب الزوارق والدرّاجات وشعروا، لأوّل مرّة منذ أشهر، بأنّهم يستعيدون بعض حقّهم في الحياة.

5

كم هو صعب أن تستقبل الربيع على رصيف مدينة غريبة!

زهر الليمون ينشر عطره، وأنا أنتظر عند المحطّة، والمدينة من حولي مثل بطن الحوت.

ارتميت فوق مقعد فارغ، ولم تعد عقارب الساعة تلسعني. ليس هناك موعد ينتظرني.

العَودَة

1

وهكذا عدتِ.
رجعتِ إلى الثقب الصغير في جدار المدينة، وكنت تعتقدين أنّ الهرب ممكن. وأنّك تستطيعين الانسحاب من جسد الوطن.
حملتِ أولادك، وسرتِ خلف رفيقك، مطأطأة الرأس.
خاضعة.
عدتِ، تغمسين أصابعك العشر في خاصرة الوطن، فترتدّ إليك مبلّلة بالدماء.

2

فكّرتِ أنّ الهرب هيّن،
وأنّكِ تتخلّصين من أصداء العذاب حالما تستقلّين الطائرة.
ولكنّك لم تلبثي أن اكتشفت المأساة، والطائرة تهدر بعيدًا في قلب الفضاء المجهول.
اكتشفتِ أنّ المأساة تجري في عروقك،
وأنّ هذا الوطن الذي انتزعتِ نفسكِ منه، مغروسٌ مثل الحربة في أحشائك. مغروس حتى نهاية العمر.

3

تبقى هذه الزاوية

برغم كلّ ما يحدث،
وتبقى بجواري شجرة كينا
تلجأ إليها عصافير الدوري،
وبلبل هارب من أزيز الرصاص.
تبقى هذه الزاوية،
أغلّ في أحشائها،
أمتدّ مع عروقها الجافّة،
حتى أعماق الجذور...

4

بعد سنتين:

قطعوا شجرة الكينا
قلعوها من جذورها
آلات جهنَّمية غزت الجوار
وهاجمت الخضراء الشامخة.
سألتِ الشجرة قبل أن تنطرح فوق التراب: – لماذا؟...
فقهقه المهاجمون، ثمّ جلسوا حول جثّتها يدخّنون السجائر.
عاد صوتها يلحّ مع تموّج الأثير: – لماذا أنا؟... أخبروني فأرتاح!
ومن جديد ارتفع صدى قهقهاتهم، وانتشر غباره في الجو، ومثل تمتمة النائم
سُمع صوت كبيرهم: – وماذا، بربّك، ماذا يفيدك لو عرفتِ؟...